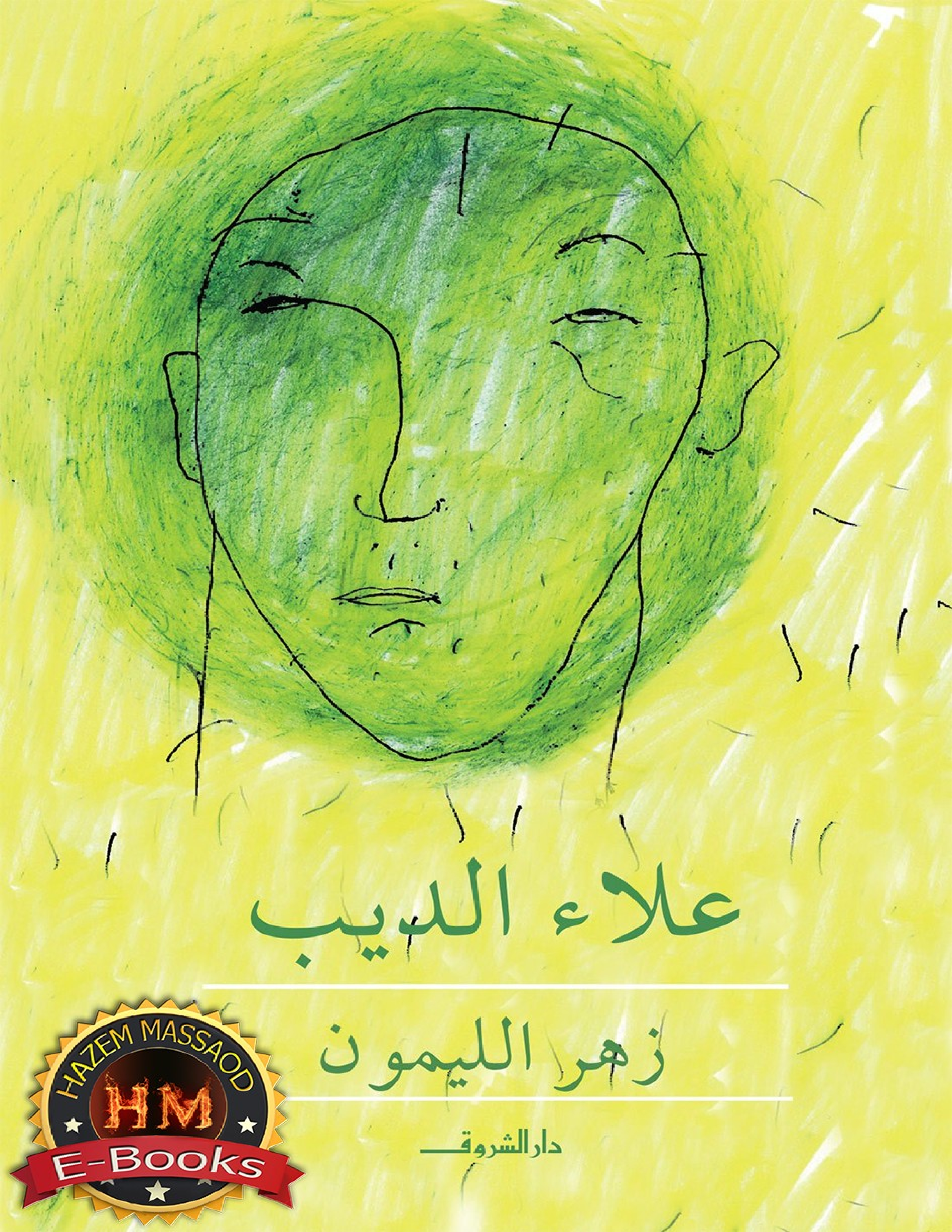

علاء الديب
زهر الليمون
دار الشروق
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

عـلاء الديــب

زهـر الليمـون

دارالشروق

زهر الليمون
علاء الديب
الطبعة الأولى 2008
تصنيف الكتاب: أدب / رواية
8 شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: 24023399
www.shorouk.com
رقم الإيداع 26483 / 2007
ISBN 978-977-09-2289-9

المحتويات

أيقظه ضوء التاسعة صباحا. الذي يصبح حادّا مزعجا في الأدوار العليا من العمارات، بعد أن يخترق النوافذ ذات الشيش الورقي الضعيف.
التاسعة صباح خميس، اليوم خميس وغدا جمعة، ضوء صيف باتر، سريع، يلامس أطراف الأثاث القليل ويملأ فراغ الغرفة الخالية التي يسكنها عبد الخالق المسيري فوق سطح بيت قديم في السويس الساكنة.
محنة القيام من الفراش صارت مكررة، معروفة الدروب والدوائر، المد والجزر، الرغبة والخوف من القيام والخوف والرغبة في الرقاد. كل يوم تضاف تفاصيل جديدة. حسب الليلة الماضية واليوم المقبل. صارت الوحدة شرنقة كاملة الغزل، غطاء سلحفاة عجوز، الرأس يخرج ويدخل يرى الضوء، يسمع الأصوات، يلامس الناس والأشياء ثم تعود الرقبة البيضاء الرخوة إلى داخل غطاء السلحفاة القديم. الوحدة: وحدة عبد الخالق المسيري الفريدة. وحدة المنفى، والسجن. وحدة أمام حاضر غامض وعالم بعيد قديم كان.
اليوم خميس وغدا جمعة. اليوم يسافر إلى القاهرة. عادة شهرية غير منتظمة كعادة شهرية لامرأة تقارب سن اليأس، عندما يسألونه في القاهرة لماذا تأخر سيقول: العادة الشهرية قاربت الانقطاع. ويقهقهون. تغلب على محنة اليوم بالضحك في سره ونفض الملاءة في حماس لا يتعدى أرنبة أنفه.
أنا لا أنكش الماضي. هو الذي ينكش نفسه. هو الوحيد الذي يسكن معي هنا. هو الوحيد الذي يدخل معي تحت غطاء السلحفاة بلا استئذان. تحت الجلد وفي العروق. لم يبتكر أحد بعد طريقة للخلاص من الماضي. في وجهك وفي أطراف أصابعك. هو الذي ينكش نفسه ويفرض صحبته بلا استئذان.
سينزل من السرير بقدمه اليمنى، عندما يفعل ذلك يكون لليوم طعم. مزدحم على الأقل، أما القدم اليسرى فهي تفرض على اليوم الكآبة. عاود الابتسام. وأصلح من بنطلون البيجامة القديم.
وصنع إبريق الشاي وغسل وجهه جيدا بسرسوب الماء الرفيع الذي ينزل بصعوبة.
عاد يسأل نفسه: أي النافذتين أفتح: الكبيرة الغربية التي تطل على السطح، أم العالية الصغيرة الشرقية التي تطل على الخليج وعلى جبل عتاقة؟ هو لا يرى المنظر إلا عندما يتسلق الكرسي لكي يفتح الشباك. يراه للحظات قصيرة ثم يهبط من على الكرسي فلا يرى شيئا. يظل المنظر في خياله فقط. لا يرى منه سوى الضوء المنعكس على الجبل الداكن.
فتح النافذتين معا، رغم تكرار المنظر فقد صدمه جمود الجبل وصموده. صامد، لونه داكن قاتم، ما زال الليل يسكن فيه. لا بد من عيون حية يقظة لكي تقتحمه وترى تضاريس الصخر والزمان فيه.
نافذة السطح الكبيرة، تطل على سطح فقير أجرد تنبعث منه رائحة حرارة وغبار. وفي الأطراف مجموعة من صفائح وفخار مات الزرع فيها وجفت العيدان. باب غرفة أم يسري جارته مغلق، عليه حدوة حصان كبيرة، ورسوم ملونة بالطباشير، وبعد السطح على مدى البصر تربض المدينة ساكنة. أسطح قذرة ونوافذ مغلقة صماء.
عاد إلى غرفته ببصره، وهو يقول: سأترك اليوم يمر، سأنزلق على سطحه كما انزلقت بي أيام كثيرة. في فمه طعم صابون رخيص، يتأكد عندما يغيم النظر، أو يبحث في رأسه عن معنى مستحيل، أو يجهد عين خياله بحثا عن منظر قديم لا يريد أن يعود.

فتح باب الغرفة أيضا. فتح كل ما يفتح، وجلس على المنضدة الصغيرة وسط الحجرة، تحيط رقبته الفوطة المبللة، جرى بأصابعه على سطور الجريدة المفرودة على المنضدة وقال لنفسه: كنت أظن أن صمت الجسد علامة الصحة. ليس بي الآن مرض أو مرارة، ليس عندي تمرد أو اعتراض. لا الرأس مثقل ولا الأحشاء منقبضة. ألا يمكن أن يكون صمت الجسد هذا من علامات الموت؟
أسرع إلى المرآة الصغيرة يمشط شعره، ويتأكد من وجود ملامحه هو بالتأكيد. دقق النظر.. فقد كانت المرآة مليئة بالبقع السوداء التي لا تزول. الشعر صار ناعما خفيفا لا يحتاج إلى تمشيط. من صاحب هذا الوجه الخامد. هذا الوجه الجميل القبيح؟ أين تختفي المشاعر والأفكار؟ أليس من الضروري أن يكون لكل وجه تعبير؟ ماذا يسكن وراء زجاج هذه العيون العسلية الطيبة؟ هي وحدها التي تتحرك: تدور على انعكاس الأثاث القليل في المرآة. ثم تحدق في الفراغ والصمت. ولا ترى وجه صاحبها.. أنا صاحب هذه العيون واسمي الثلاثي عبد الخالق حسني المسيري، حرك وجهه وانسحب من أمام المرآة، وقد عاوده ذلك الابتسام المزمع الغريب.
قالت له ذات صباح: افتح نوافذك العسلية إنها تستطيع أن تحتضن الناس والأشياء، وأغرقت عيونه بالقبل.
مع طعم الشاي الساخن الحاد الذي يجيد صنعه، زال الطعم الغريب الذي يملأ فمه واستيقظت أطرافه. سمع خطوات أم يسري تصعد السلم، فكسا صدره العاري بالقميص الأبيض النظيف، ما زال يحب رائحة الملابس النظيفة، وتقتله رائحة العرق. سبقت أم يسري رائحة خبزها الطازج الذي تجلبه كل يوم من أطراف السوق. دقت على الباب بكف يدها، وانداح صوتها الطيب يلم أشلاء الصباح، وهى تقول:
- صباح الخير يا سي عبد الخالق.
غمغم بردود كثيرة، وكأن صوته قادم من مكان بعيد. لم يعد يستطيع أن يخرج من لحظاته الخاصة بسرعة. فيخرج منه الكلام في البداية مجرد أصوات تحمل الإيقاع والشعور. تعود الناس منه هذا، وصاروا يفهمون ما يريد أن يقول. استمرت أم يسري تعلق على الحر والرطوبة. والسلم الملعون، واختفاء السمك والخضار، والزحام وهو يشرب الشاي ويردد: اتفضلي.. ادخلي.. اقعدي.. وضعت شنطتها البلاستيك على الأرض، وأخرجت رغيفين فاخرين كعادتها معه عندما تذهب إلى السوق.. قال:
- دايما عامر.. أنا نازل مصر النهاردة.
أعادت الخبز إلى الشنطة، وتأملته وتأملت الغرفة في محبة وود وقالت:
- بالسلامة.. متنساش تقفل المحبس.
وتنهدت منصرفة وهى ما تزال تتكلم، أحس فجأة بالندم. لِمَ لم يأخذ العيش؟ لِمَ لم يستبقها لحديث أطول.. ولماذا يسافر على أي حال؟
كانت الغرفة قد بدأت تمتلئ بذباب الصباح البليد، فقام يغلق النوافذ ويكمل ارتداء ملابسه. وفي عتمة الغرفة التي جلبها إغلاق النوافذ، راح يعيد ترتيب الكتب القليلة المتناثرة، وكأنه يطمئن عليها. دواوين الشعر العربي القديم وروايات مترجمة، وكتب قليلة أهداها إليه الزوار، وبعض الأصدقاء القدامى. وقف أمام صورته الكاريكاتيرية التي رسمها له زميل قديم وهو يمسك في يده سيفا خشبيّا وعلى كتفه مخلة من قماش ملون، ثم قرأ للمرة الألف الكلمات التي كتبها صديق سكر عنده في ليلة بعيدة، كتب بقطعة من الفحم إلى جوار النافذة: إنما الناس سطور كتبت لكن بماء.

أخذ عبد الخالق المسيري يؤكد لنفسه أنه ذاهب إلى القاهرة في فسحة، وأنه ليس مستدعَى لتحقيق ولا يساق إلى سجن أو اعتقال. ولكن شعورا ثقيلا لم يكن يفارق قلبه. خليط غريب من الخوف والانقباض، لم يعد يجدي معه محاولة السخرية أو التفكه.

عندما جاء إلى السويس منذ أربع سنوات لكي يعمل موظفا في قصر الثقافة كان هناك حلم غائم بأنه سيجد في هذه الوحدة نفسه، وأنه سوف يلم تلك الفوضى التي صارت إليها حياته، لم يكن يحلم بتغيير كبير أو بأعمال عظيمة، ولكنه كان يقول إن قطع علاقاته بالقاهرة سوف يجعله يرى الأمور بشكل مختلف، وإنه على الأقل سوف يصبح قادرا على التعايش مع الواقع الجديد.. والأهم أنه سيصبح قادرا على تنظيم علاقاته بالماضي.

مرت السنوات الأربع كأنها ساعات مكسورة، زمن متناثر موزع، لم يكن هناك عمل يذكر في القصر، وإن وجد فهو شكلي، وموسمي، وسخيف. وهو غالبا مستبعد من اللقاءات والمناسبات لأن ماضيه الشيوعي يطارده. أو هو على الأقل يتصور ويريد ذلك. ليس هناك علاقة بين تلك الحفلات السخيفة الصاخبة، وبين حلم العمل مع الناس ومن أجلهم. ذلك الافتراض الجهنمي الذي يطارده في الواقع وفي الأحلام. تغير الرؤساء والزملاء في العمل واستقر هو في المكتبة: بلا زملاء ولا كتب، ولا رواد. قاعة في نهاية ممر طويل، مفتوحة النوافذ، يتناول فيها الشاي ثلاث مرات في النهار، ويقرأ الجرائد الثلاث، يراجع ثلاثة دفاتر، ويرتب ثلاثة كتب. جاء من يريد أن يقرأ، وذهب لأنه غير رأيه. أو لأنه لم يجد ما يقرؤه. جاء له رجال المباحث والمخبرون وذهبوا لأنهم لم يجدوا عنده ما يخبرهم عنه، جاء الراغبون في الصداقة والحديث، ولكنهم وجدوا أن روحه قد جفت، وجدوا أن الملل يغطيه كما يغطي التراب رفوف كتبه وأوراقه القديمة. فكر أن يكتب اسمه على خشبة هرمية ـ كما يصنع الموظفون ـ ويضعها على مكتبه ويكتب على الناحية الأخرى «إمكانية مهدرة ووقت ضائع»، يقلب في خياله الهرم الخشبي ويواجه اسمه ثم يواجه شعار المرحلة. يقوم ليطل على الخرابة المليئة بالزبالة المجاورة للقصر. خلال السنوات الأربع لم يخفت حضور القاهرة في حياته. غول يأكل الأيام ليس شوقا إليها يشتاق، وليس حبّا في نهارها أو ليلها أو ناسها الذين كانوا. ولكن كأنها جملة ناقصة لم تكتمل كلماتها. لا هي اتسقت، ولا هي أفصحت عن معنى. وحش يسد الحلق.

يحب السويس، فقط لو أبعدوه عن الميدان، ومبنى المحافظة والقصر.. لو أبعدوا عنه البوتيكات الجديدة والميكروفونات، والمجمعات السكنية التي خربت قبل أن يسكنها الناس.

يحب السويس لو أعادوا لها معناها، اتساق «الكبانون» مع البيوت القديمة، والكازينو الخشبي البعيد.

يحب السويس لو عادت الفراندة الكبيرة التي تطل على الخليج. والشاعر أمل دنقل في الليل يروي شعره في ظلام الفراندة، وجهه مثل جبل عتاقة وقامته مثل حبال السفن. لو أعادوا الناس كما كانوا بدون القمصان الملونة، والأكمام المشمورة، والشعر الملصوق والبنطلون المحزق والمشية المخلعة.

يحب سمك الأدراج والسرنباق، والطحينة المحوجة والسمسمية والرجال والبحر قبل أن يلوثه التهجير والأكاذيب والآمال المحبطة.

يحب الشوارع كلها قبل أن تنهشها فئران القذارة واللصوص الجدد.

يحب المد والجزر في القمر تحت جبل عتاقة في ليالٍ ذهبت ولن تعود.
يحب الأربعين، والحلقة، وسيدي الغريب وكراسي المقهى المدهونة باللون الأخضر.
عندما دخل مع صديقه أحمد صالح إلى مبنى وزارة الثقافة لكي يقابل الدكتور محمود فهمي، كان يغالب شعورا بالغثيان لم تفلح في دفعه السخرية السوداء التي يلقيها أحمد صالح على كل شيء، أحمد صالح رفيق قديم، هو الآن صاحب ورشة صياغة في الأزهر، تغلب على تناقضات كثيرة، وزرع نفسه في أرض جديدة لم يبقَ ما يربطه بالماضي سوى أحاديث الليل المطولة المكررة في السياسة وفي تحولات الناس، يعرف الجميع من ادعى ومن خان، ومن أنكر واستنكر، ومن تمسك بالأوهام ومن ضاع، في نفس أحمد صالح صفاء غريب، وفي يده مهارة وفي قلبه سماح.
ولأن للدكتور محمود فهمي ذوقا خاصّا في الفضة، فإن علاقته مع أحمد صالح صارت أكثر من حميمة، يحمل له أحمد أطقما جديدة، ويعثر له على قطع قديمة نادرة، ويطلي للمدام القطع القديمة، ويصلح ما انكسر منها، يراه في البيت وفي الورشة، والتليفونات بينهما لا تنقطع: «لذلك يا أخي هو لا يرفض لي طلبا.. بل هو يتمنى. لذلك يا أخي لا تكن قفلا.. أرجوك، ثم من يدري قد ينقل من منصبه هذا غدا.. والمهم أنه يعرفك».
ولأن أحمد صالح بارع، وله حضور سمح ومريح، فقد كان اللقاء أسهل مما تصور. انشغل أحمد بشرب القهوة. ثم في تأمل قطع الفضة، الأطباق والميداليات التي تملأ المكتب الكبير. قام الدكتور محمود، وضع يده على كتف عبد الخالق وسحبه بعيدا إلى النافذة العريضة وقال:
ـ إجراءات الأمن ووزارة الداخلية، أنا سأتولى إنهاءها مع الوزير مباشرة، مثل هذه الأشياء يجب أن تأتي من فوق؛ حتى لا يعقدها الصغار، بقي يا سيدي أن تختار: الإسكندرية زحمة، والصعيد بعيد عليك.. ما رأيك في السويس.
تدخل أحمد فقد كان الدكتور قد رفع صوته في الجزء الأخير من الحديث قال:
ـ عين العقل، الله يبارك فيك.. وعبد الخالق عاشق قديم للسويس.
ـ على بركة الله.. بعد أسبوع تستلم.
تغير كل شيء فجأة، وفي بساطة، وحمل صالح معه بعض الميداليات والكئوس الفضية التي فازت بها الوزارة لكي يعيد طلاءها في الورشة.
في الخارج، ضرب عبد الخالق في صدره وقال:
ـ عشان تعرف.. أنا اسمي أحمد صالح صانع المعجزات.
وابتسم عبد الخالق في امتنان ودهشة.

أنت يا حبيبي مركز الكون والوجود. كل شيء معك سعيد وممتع، حتى ولو كان مراقبة عمال يرصفون الطريق.
أريد أن أعيش معك في قارب صيد، غليظ المجداف والخشب، نركن تحت الكباري، وندخل ليلا إلى القرى الصغيرة.
أريد أن أغسل ثيابك.. أنت لا تعرف كيف أجيد الغسيل.. وأنت هل تجيد الصيد والتجديف؟
الساعة تقترب من العاشرة، عليه أن يغادر السويس قبل الظهر؛ حتى يصل إلى القاهرة قبل العصر، فيجدهم جميعا في الخمارة مجتمعين. عليه قبل ذلك أن يحصل على قطعة حشيش جيدة ورخيصة حتى يفرحوا بما جلب لهم من السويس.
تجنب الشوارع الرئيسية حتى لا يلتقي بواحد من الموظفين المتنطعين ـ فيسألونه ويجيبهم بأدبه الذي ضاقوا به، وضاق هو به قبلهم.
لا يريد أن يعرف أين كان مدير القصر أمس، ولا ماذا فعل. لا يريد أن يعرف من جاء من مصر إلى المحافظة أمس، ولا عن ماذا يسأل.
يريد أن يتجنب الشوارع ذات الأرصفة المدهونة حجر أبيض وحجر أسود. يريد أن يتجنب الشعارات المكتوبة على سلال القمامة الفارغة. وإشارات المرور التي لا يتبعها أحد.
سلك طريقا خلفيّا يدور حول المدينة القديمة ويخرج به إلى شارع ترابي يحده مرتفع مزروع بغابة من التين الشوكي العجوز، تكسوه ستائر من العنكبوت والتراب، يمتد الشارع حتى يخرج من المدينة، وعلى جانبه الآخر حقول حرقت حوافها أتربة الطريق السريع، وشكمانات عربات النقل.
سار في الطريق الترابي مسرعا تثير أقدامه خلفه ترابا. حرارة الشمس المتزايدة، وأشباح العابرين تخلق حوله زمانا ومكانا معلقين على ذرات غبار تخترقهم شمس ضحى بليد.
ـ أنا الضابط فتحي فرج، سوف أشوي جلودكم.. وأبدلكم بعدها جلودا جديدة. وأنت.. أنت يا ابن البغي.. اخلع ثيابك كلها.. كلها.
كان الضابط سمينا قصيرا يلمع نحاس بدلته تحت الشمس، وعيونه فتحات سوداء لامعة.
يدفع عبد الخالق عن نفسه ذكرى سنوات الاعتقال بترديد أغنية قديمة كان يرددها له صديق.. صار اللحن بلا طعم.. والذكرى تزداد وحشية ووضوحا.
اذهبي عني يا أشباح. يا سنوات من هباء.. اصعدي واستقري هناك، وسط أدغال التين الشوكي. اخلطي دماء الشيوعي القديم بستائر العنكبوت. أو ادفعي في حلقي بزهرة التين الحمراء، أو بثمرة التين ذات الشوك نفسها، فقط لا تتركيني أسيرا، أنهش نفسي بالنكش والتقليب.
سقط غبار الطريق تدريجيّا، وأسلمته رطوبة الطريق الترابي إلى الأسفلت فدخل إلى المقهى الندي، الذي تغطيه تكعيبة عنب. وسأل عن تاجر الحشيش فقالوا إنه لم يحضر بعد فجلس يشرب شايا رديئا.. وينتظره في قلق.

في المقاهي وغرز الحشيش يشعر عبد الخالق بمزيج من القلق والفرح الطفولي، هنا عالم خارج على القانون، بعيد عن القواعد المرعية، مضاد للعجلة الدائرة والتيار المندفع.
لم تعد الجلسات ممتعة كما كانت. هو ليس مدمنا على التعاطي. أو حشاشا لكنه يقتل الفراغ ويتفرج، هناك تراث قديم في نفسه ضد الحشيش وتعاطيه كانوا يقولون: اسكر لو أردت.. ولكن إياك والحشيش فهو أقصر الطرق للقضاء على الثورية، للقضاء على أي رغبة في التغيير.
هو لا يتحدى التراث القديم ولا يناقشه، لكن الأشياء تداخلت وفقد الكلام معناه. هو لا يصنع شيئا، لا يقوم بأي عمل، فلماذا يذكر هذه الأفكار القديمة؟
في وقت من الأوقات كانت هذه المقاهي الصغيرة عالما مستقرّا راسخا، تصب فيه المدن ما تحتويه من قصص وأساطير، لكل مقهى طعم وطابع يرتبط بجزء من الواقع الحقيقي الذي عاش يتكلم عنه ولم يدخله. مقاهي القاهرة: الأزهر، والحسين والجمالية، ومعروف، هي الأصل، مؤسسات راسخة ترتبط بالتاريخ والتقاليد القديمة، أما ما عرفه من مقاهي الأقاليم فكلها مقامة على الطريق السريع.
لم يعد لهذه الأماكن سحرها القديم، لقد هاجمها الزبون الجديد قبل أن يهاجمها أو يهدها البوليس. الزبون الجديد قلب الغرز إلى بوتيكات. كان يحب مقهى قديما في حي الأربعين، وعندما زاره أخيرا، وجد على المدخل فترينة تقدم سندويتشات الكبدة، فتختلط رائحة زيت القلي برائحة الدخان العبقة.
وعندما سأل الساقي قال: كله أكل عيش يا أستاذ، الحشيش بيجوع، والحلو بقى غالي. غادر المقهى وكأنه فقد صديقه، فقد كان ظلامها الرطب الهادئ الممتد إلى الداخل يحتويه في فترات العصر، ويبدو الشارع من الفتحة المضيئة البعيدة كأنه عالم صامت لا شأن له به.
كانت بعض هذه الأماكن تحمل له معنى خاصّا من السلام، لم يعرفه منذ الطفولة، خاصة عندما يجلس وحيدا، ويشرب على مهل، خمسة كراسي أو عشرة ثم يتلوها بكوب من الشاي ليخرج بعدها فيجد أن المدينة قد وقعت معه صلحا منفردا وصارت كل حروبها لا تعنيه.
صار الحشيش هو الآخر غالي الثمن محفوفا بالمخاطر، رديئا لا طعم له يسبب له صداعا وغثيانا، ولولا صديقه فتحي نور الدين الذي يسأله في كل زيارة عن حشيش السويس لما فكر أن يجلس هنا ينتظر المعلم صابر الذي يبيع في هذا المقهى قطعا صغيرة من الحشيش الملفوف في عناية، حشيش منظره خادع ولكن نوعه ردىء. ليس فيه من الحشيش سوى الاسم وبعض الرائحة. سأل عن المعلم مرة أخرى في قلق فقال له الصبي وهو يبدل بكوب الشاي كوبا آخر: المعلم على وصول.. حالا يا أستاذ.
كانت أمه سمينة بيضاء، تتحرك من الصباح الباكر بنشاط في بيتهم الكبير ذي النوافذ والأبواب الكثيرة المفتوحة، تسوق الخادمة سعدية أمامها لكي تقلب البيت وتمسحه كل صباح. كانت سعدية سمراء تكبره بسنة أو سنتين. لم تكن سعدية تكف طوال النهار عن العمل، أو الخروج إلى السوق، أو اختلاس لحظات قليلة لكي تلعب معه في الطين، أو تتركه يتحسس جسدها، حتى تنادي عليها سيدتها وتلكمها في جسدها المدكوك الأسمر، فتبكي سعدية بصوت عالٍ، ثم تضحك، وتعاود الجري هنا وهناك، حتى تستلقي في آخر النهار على فرشتها القذرة إلى جوار باب المطبخ. أما أمه فقد كانت تستحم في العصر وتبدل ثيابها ومنديل رأسها، وتفوح منها رائحة خاصة تملأ البيت كله.

كان في الثالثة عشرة عندما اختلس من كيس النقود الذي تتركه أمه في الصالة خمسين قرشا. كانوا في إجازة الصيف والأيام فارغة طويلة، وأصدقاؤه يذهبون إلى السينما ويفعلون أشياء كثيرة، ولم يكن هو يحصل من أهله على أي نقود. كانت الورقة أم خمسين قرشا مطوية في عناية في أسفل الكيس، ولم يكن يعتقد أن أمه سوف تكتشف ضياعها بسرعة.
أخذها حوالي الثالثة ظهرا، والبيت نائم، وخرج لكي يمضي مع أصدقائه وقتا ممتعا طويلا، أخفى ما تبقى من قطع معدنية في الحذاء وعاد إلى البيت حوالي العاشرة.
عرف أن أمه ضربت سعدية حتى سال منها الدم، وأن البنت طفشت بعد أن أقسمت أنها لا تعرف شيئا عن النقود وأنها لن تعود أبدا، وأنهم لن يعرفوا لها مكانا.
قال هو إنه يعرف أين ذهبت، وإنه سيذهب لإحضارها فهناك نجار في السوق كانت تتكلم معه كثيرا، ويقول لها إنه من بلد قريب من بلدهم، فقالوا له: اذهب ولا تعدْ من غيرها.
لم يصدق أنه خرج مرة أخرى إلى الشارع. في الظلام، ألقى بالقطع المعدنية بعيدا، وظل يجري حتى وصل إلى الدكان. قالوا له: حمدي النجار أخذ البنت إلى بيته. هناك وجدها منكوشة الشعر، مكومة على الأرض تبكي، ألقى بنفسه عليها وأخذ يضمها إليه، ويقبل رأسها وحمدي النجار يقول: «حرام عليكم يا ناس.. البنت أمانة عندكم، حد يعمل كده في أولاد الناس.. افرض الفلوس ضاعت أو وقعت أو تكون الست صرفتهم وناسية».
عادوا هم الثلاثة في موكب حزين. كان يشعر بسعدية تسير خلفه، ودقات قلبه تصم أذنيه. لم يكن يستطيع أن ينظر إليها، وهي تبكي بكاء غريبا، ليس كذلك البكاء الذي يعقبه ضحك.. كان الطريق طويلا، وحمدي النجار يقول بين الحين والآخر: «ليه كده بس، ده انتو ناس طيبين، وأبوك راجل طيب وأمير».
وجدوا البيت مضاء، وجميع من فيه ينتظر.
استقبلت أمه سعدية وأخذتها في صدرها وهى تقول: «خلاص يا بنت.. امشي استحمي ونامي في فرشتك، خلاص، قلنا خلاص، هو أنا مش زي أمك».
تكلم أبوه مع النجار قليلا، ثم صرفه، والرجل يدعو له، وللست الكبيرة ويقول: احنا كلنا خدامينكم، ربنا يبارك لك في الأولاد، البنت دي أمانة. أحسن بنت في شغالات الحتة كلها، والله كده يا سعادة البيه، دي بتحب البيه الصغير زي أخوها».
ظل هو يدور في الصالة، وهو يسمع نشيج سعدية، قامت أمه لكي تضع بعض الطعام لسعدية في طبق وتطمئن أنها نامت في فرشتها.
قالت أمه لأبيه في آخر الليل: «فلوس ولا مش فلوس.. البنت كبرت، وأنا ما عدتش عاوزاها في البيت، لازم تسافر البلد».
بعد أن رحلت سعدية، أصابته حمى شديدة كان يخاف أن تفشي الحمى والحرارة سره. كان يمسك بحديد السرير، ويضغط على أسنانه ويبكي، وأخته إلى جواره تبدل الفوطة المبلولة على جبهته التي تحترق، وقد استحالت الغرفة وكل ما فيها إلى قطعة واحدة من رخام صامت.
عندما دخل المعلم صابر إلى المقهى دب في المكان نشاط مفاجئ. كان يرتدي جلبابا أبيض نظيفا، ويتحرك في ثقة واطمئنان.
وضع في يده قطعة الحشيش وقال: «دي حاجة جديدة.. حلوة عشانك أنت والحبايب».
ابتسم له غير مصدق، وأسرع منصرفا من المقهى، والحشيش ما زال في يده.

موقف الأتوبيس والتاكسيات: هذا هو الجنون بعينه. أربعة أو خمسة من أجهزة التسجيل تندلع زاعقة من الرصيف، أو من محلات العصير، بعضها يرتل القرآن بأصوات عالية غريبة، واحد يصيح بمدائح صعيدية غير مفهومة، وامرأة تصرخ في غنج ملتهب على راجلها الذي سافر ولم يرسل خطابات.

وقف إلى جوار أقفاص فاكهة رديئة عليها أثمان غالية، وكاد الرجل ومساعده أن يدفعاه دفعا إلى قفص من العنب المقزز القبيح. كانت النسوة المحجبات يسرعن في ملابسهن الطويلة، أجسادهن محشوة رخوة تهتز، وهن يسرعن خلف رجالهن المتجهمين يتدافعون بحثا عن مكان خالٍ في تاكسي، أو تذكرة متبقية رخيصة في أتوبيس مزدحم. أرض الموقف قذرة، وصناديق زجاجات المشروبات مرصوصة عالية، كأنها متاريس حرب ستقوم في أي لحظة، ورائحة الأطعمة نافذة رديئة، ولكن الأفواه حول العربات تأكل، وتلقي بالبقايا تحت الأقدام، وصبية صغار يغسلون الأطباق البلاستيك والصاج في جرادل من الماء القذر.

من أطلق كل هذه الغيلان، وماذا تريد؟

كاد يتشاجر مع بائع الفاكهة الذي يلح عليه، وصاح في وجهه: «مش عاوز يا أخي.. مش عاوز»، استدار الرجل عنه وكأنه لم يسمع، وعاد يصرخ على بضاعته بصوت قبيح.

أخذ يبحث في وسط الفوضى عن سائق تاكسي يعرفه؛ حتى يضمن الجلوس إلى جواره، إلا أن الوجوه كلها جديدة متعجلة، فاليوم خميس وغدا جمعة، وهناك فرصة لزيادة الأجرة أو لسائقين جدد على الموقف.

أحس بيد تشد بنطلونه، لمح شحاذا أسود يزحف على الأرض وقد التوت سيقانه تحته، يشد بنطلونه وينادي عليه بكلام غير مفهوم، أحس بحرارة لاهبة تندلع في جسده، وقفز هاربا من مكانه.

كان الضابط السمين الأبيض واقفا فوق رأسه، وهو منبطح على وجهه في الرمل الساخن، يلكزه بالحذاء في ضلوعه، قال له:

- ابتلع هذا التراب؛ حتى لا أسمع صوتك، كل حتى لا أسد به حلقك. إلى جوار الضابط، اثنان من العسكر، في أيديهم كرابيج سودانية مدلاة، أمامه صف طويل من زملائه، وقد انبطحوا على وجوههم يزحفون.

- يا عبد الخالق.. يا سي عبد الخالق. رد علينا يا أخي. إنت مش نازل مصر.

كان الصوت المعدني الصارخ هو صوت مصطفى الكردي، زميله المعار للعمل في السعودية منذ ثلاث سنوات.. قبض على ذراعه وسار به مبتعدا عن مركز الفوضى.. لم يكن يشعر بالأشياء حوله وهو يخترق الزحام في ثقة واقتدار، وقد استسلم له عبد الخالق.

تغير مصطفى الكردي، صار لونه أبيض، واختفت البثور والخروم التي كانت تملأ وجهه وذقنه.. صار وجهه ناعما يطفح بالنعمة، وتبدو عليه آثار الطعام الجيد، والعصائر والفيتامينات. قميصه ملون واسع، والبنطلون يلمع في الشمس، وفي يده حقيبة بنية جلدية كبيرة كأنها خزانة متنقلة.

سمع عنه حكايات كثيرة: سمع أنه اشترى شقتين بواسطة كبيرة في المحافظة، للبنتين اللتين يعدهما معا لزواج قريب. وسمع عن الهدايا التي يحضرها من السعودية، كما سمع أيضا أنه إلى جانب ذلك كله سوف ينشر مجموعة قصص على حسابه؛ قصص كتبها في السعودية.

كان التاكسي «البيجو» ينتظرهم خارج الموقف، وقد احتلت الكنبة الوسطى زوجته وابنتاه، وفي المؤخرة شابان بلا ملامح يرتديان بدلا كاملة ويتصببان عرقا. النسوة الثلاث كن يرتدين غطاء رأس وردي اللون، وفساتين طويلة ملونة وقد صبغن وجوههن بطريقة واحدة، وقطع من الذهب تلمع على الصدر وتتدلى من الأذنين. قدمه مصطفى لهم في حماس قائلا:
ـ زميلنا الأستاذ عبد الخالق المسيري، شاعر وفنان كبير زميلنا في قصر الثقافة..
حيا الجميع، وغمغم بكلام لم يسمعه أحد. وانحشر بين السائق ومصطفى الكردي الذي جلس وقد وضع يده خلفه، وأدار نصف جسده لكي يواجه أسرته التي تحوم فوقها سعادة ورضا خانقان.
لم يعط مصطفى الكردي فرصة لأحد لكي يتحدث، هو الذي يتكلم فقط. إنه يرى أن البلد في أحسن حال. العمارات الجديدة والمباني في كل مكان والناس أحوالهم عال. ما ينقص البلد هو بعض الحرية والتجارة والأعمال، والقضاء على الروتين، وميراث التخلف والفقر، وآثار سنوات الارتباك والعك. إننا لم نعرف بعد كيف نستفيد من علاقتنا مع أمريكا والغرب. الموانئ مثلا ما زالت متأخرة جدّا. شيء لا يقارن بموانئ السعودية والخليج. ثم استدار إلى عبد الخالق وقال في ود مصطنع:
ـ وانت يا عبد الخالق، أحوالك عامله إيه، ما فيش حاجة جديدة؟ اخرج يا أخي بقى من الشرنقة بتاعتك دي. سافر، أو اتحرك شوية. حرام عليك العمر بيضيع. وانت راجل كلك مواهب.
ابتسم عبد الخالق ابتسامة لا معنى لها، ولم يستطع مصطفى أن يستمر في هذا الحديث فبدأ يحكي له عن سبب سفرهم إلى القاهرة. هناك أشياء كثيرة تريد البنات شراءها من مصر انت عارف دلع البنات، مع أن ما فيش أي حاجة ناقصة، كل حاجة جايبينها لهم من السعودية، بدل الطقم الواحد طقمين وثلاثة. وأمهم مطاوعاهم فاكرين أبوهم قاعد على بنك. عارف يا عبد الخالق يوم الغربة يساوي آلاف. لكن حنعمل إيه..
أحس عبد الخالق أنه أخطأ بأن ترك نفسه ينزلق إلى هذا المطب. ذهنه مجهد، وحديث مصطفى، وجوده كله لا يثير عنده أي رغبة في التعليق. كل شيء كاذب ومصطنع، والشابان الصامتان اللذان يجلسان في الخلف يجسدان له مصيدة النقود الجهنمية التي يقع فيها الجميع. القروش القليلة التي في جيبه حصن حصين. لا يريد شيئا من كل هذه الأشياء التي يتكلمون عنها. عليهم أن يتعلموا ألا يتكلموا في أشياء لا تخصهم. ما لهم هم ومال البلد؟ ما لهم ومال الناس، أو المعاني أو القصص أو الأشعار؟ لِمَ لا يتكلمون فقط عن نقودهم ودولاراتهم؟ لِمَ لا يخرج مصطفى من حقيبته الآلة الحاسبة ويعكف عليها طارحا وجامعا وضاربا، ويتركه في حاله يراقب الصحراء، ويتمتع بانطلاق السيارة وبحركات السائق الواثقة؟ كان السائق نوبيّا لطيفا صامتا. لم يتكلم وكان شاهدا.
ويبدو أن مصطفى الكردي قد أحس هو الآخر بأنه تورط عندما حشر هذا البائس الفقير معهم في العربة، فاستدار إلى زوجته وأخذ يهمس لها بحديث خاص هو لب الموضوع والحياة. أغلق عبد الخالق عينيه. وسأل نفسه: أين ذهب الحب، والود الصادق؟ «أين ذهبت الأفراح؟». واستسلم للنسمات الساخنة التي تهب عليهم من الصحراء.
بعد أن خرج من المعتقل بعام أو يزيد، ودخل إلى جنة عرضها السماوات والأرض.. عثر عليها في شوارع القاهرة.. هي التي عثرت عليه.. منى المصري.. منى فقط. كم ردد اسمها في الليل لكي يغسل به أحزان روحه! منى وكفى.. راحت تدخل إلى حياته كما تلبس يد رقيقة قفازا ناعما..
عندما كان يدق باب شقة صديقتها الأجنبية التي تنتظره عندها، كانت تردد اسمه في شوق وفرح كأنها تلقاه مصادفة في عالم غريب وتقوده إلى غرفتهم الصغيرة، وتغلق الباب. سر النسيج

السحري الذي يدمج اللحظات والساعات مبذول متاح.
كان له كرسي قديم يطل على النافذة الطويلة، يسكن إلى الكرسي وجسده يرتاح. لم تكن تضيء النور، يراقبان معا دخول الظلام مع موسيقى موزار. نغم موزار يسحب روحه ويداه في شعرها في جسدها، في قلبه موسيقى وعلى شفتيها تضيء نجوم. ما أجمل السكون بعد العاصفة، يحترقان معا لساعة، ثم يحل صفاء غريب.. هل لهذا الذي كان اسما، وكيف تكون الحياة بدونه؟ سؤال لم يعرف له أبدا جواب..
كانت الإسكندرية مغسولة في الشتاء بماء المطر، والمقهى الذي يسكنون إليه أكثر النهار خالٍ إلا من بعض اليونانيين العجائز والعشاق. يراقب تحت ضوء الشمس زغبا أصفر ناعما على ذراعها الممتدة نحوه على المنضدة، قلب كفها، ودار بأصابعه مع خيوط الكف وهو يحدق في عينيها قالت:
ـ أنت لن تعرف أبدا. جئنا إلى الإسكندرية لكي أخبرك، انتهت إجراءات الهجرة بالنسبة لأخي وديع. أمضينا أنا وهو ليلة صاخبة أمس.. انتصرت ووافق على كل شيء، سنتزوج اليوم.. أو غدا، أو متى تريد. سيترك لنا شقته. وديع الآن يتحدث مع أبي وأمي وأنا الآن صرت لك..
هم بالحديث. لكنها سحبت يدها، ولامست عيونه وشفتيه..
انتبه على صوت الكردي المعدني يقول:
ـ نمت يا عم، يا بختك.. لا بنت ولا ولد.. احنا حننزل وسط البلد.. التاكسي يركن في أي حتة.. واحنا نقضي المشاوير. ونتغدى، ونرجع الليلة إن شاء الله. تحب تنزل فين؟
ـ أي حتة في وسط البلد.. أي حتة.
ـ لازم تيجي.. لازم أشوفك، بلاش الهروب الدائم ده. عاوز آخذ رأيك في القصص الجديدة.
في أول إشارة مرور، شكر السائق والكردي، ودع الجميع:
سلام.. سلام. ونزل مسرعا يخبط بالجريدة المطوية ترابا وهميا يغطي جسده كله واندس في سيل الزحام.

هي القاهرة. لم يغادرها أبدا. هي لم تغادره. هي الجلد والعظم والنخاع. هي الصليب والذكرى الأبدية. مدينة المدن. متوحشة وجميلة، في هوائها حرية وفي ضوئها قدرة واقتدار. من يسكنها عظيم ومن يغادرها منفي مسكين. لا يقدر أن يغيرها أحد.
نفض عن نفسه هم الوحدة. واستقبل الناس والزحام بحب كاد أن ينساه.
أخرج الجنيهات العشرة الجديدة التي يحتفظ بها في جلدة البطاقة ودخل إلى محل بقالة كبير. اشترى قطعة من الجبن الأبيض الفاخر، وزيتونا أسود. وبحث حتى وجد عيشا شاميا، ناشفا، منى كانت تحب الجبن الأبيض والزيتون. ولم تكن تأكل سوى العيش الشامي الناشف.
لامس أحجار المباني القديمة التي تقوده إلى «بار الأمراء»، وشعر بسعادة معتقة قديمة. وكأن شيئا لم يحدث. ما زلت أعيش. ما زلت أعيش، يا فرحتي. أعيش كما تعيش تلك الحجارة، وقباب المباني القديمة. ما زلت أعبر تحت البواكي العالية. وأرى محلات الزهور القليلة وأراقب الماء ينساب على الزجاج.
تصادم في فتيات صغيرات مرحات. وأحب صخب بعض الفتيان وضحكاتهم العالية المنطلقة. وقبض على لفة الطعام الصغيرة في يده. وألقى بالجريدة ـ المتسخة في سلة المهملات وقال: اليوم خميس وغدا جمعة. سأسمع أطنانا وأطنانا من القصص والأكاذيب يا فرحتي ما زلت حيّا..

- ٧ -

عندما ترتفع عن روح عبد الخالق المسيري. لسبب أو لآخر، أستار الكآبة فإنه يشعر بنوع من النشاط يمر في جسده كله كأن شيئا لم يحدث بعد. أو كأن الأشياء في بدايتها مدهشة وجديدة.
يفكر في مشروعات متتالية. وسعادات صغيرة. بل وأحيانا في مطالع قصائد أو أبيات شعر.
دخل إلى «بار الأمراء» والساعة قد جاوزت الثانية بقليل، كان المكان هادئ الإضاءة ونظيفا، يمتد بطول عمارة قديمة، وقد رصت على جانبيه مناضد رخامية صغيرة. يفرشه الضوء المنساب من نوافذ زجاجية عالية مفتوحة لتجديد الهواء.
استقبله عم سيد الجرسون النوبي العجوز بفرح واشتياق حقيقي. وقف إلى جواره يعد له المنضدة. وينظف رخامتها في تمرس وإتقان، وهو يسأله عن حاله وصحته وعن أحوال الدنيا معه.
ثم زعق:
- بيرة سخنة..
تركه بعد أن أخذ لفة الطعام التي في يده، لكي يعده له في أطباق، كان عم سيد آخر الجرسونات الذين تربوا على حب العمل وإتقانه.
ليس في خدمة الشاربين ما يشين، ولا ما يبرر التحايل أو النصب أو إساءة الأدب، يتصرف بأدب وكرامة نوبية أصيلة لم يغيرها تبدل الزبائن أو أصحاب المحل.
يعرفه، ويعرف أصدقاءه منذ سنوات، ويستدل باستمرار من ترددهم على المكان على أن الدنيا ما زالت بخير. وأن هناك ناسا طيبين، تأتي إلى هنا لكي تشرب وتتكلم وليس فقط تلك الغيلان الشابة التي انفلت عيارها، وانقلبت سحناتها وانتفخت جيوبها، تشرب لكي تسب وتلعن وتتشاجر، وتخرج المطاوي. وكل ما في جعبتها من دناءة وقذارة أو كل ما يقع عليها في الحياة من ظلم وإهانة.
كان عم سيد يأتنس بهذه الشلة، ولا يمكن لأحدهم أن يتصور المكان بدونه.
وضع الأطباق حول زجاجة البيرة بعد أن أضاف إليها الترمس والجرجير الأخضر وسأله عن السويس، ولماذا لا يأتي كل أسبوع، وحكى له عن نوادر فتحي، وعن الحدة التي تعامل بها أحمد صالح مع بعض الأنطاع منذ أسبوعين، ثم تركه قبل أن يضيق بحديثه أو يشعر بفضوله.
مع الجرعات الأولى من كوب البيرة، أحس عبد الخالق بالاستقرار والهدوء وراح يتأمل بعض المعلمين المتحلقين في دائرة إلى جوار البار القديم. يتحدثون عن مباراة كرة القدم غدا، وعن شئون لهم غامضة ومليئة بالأسرار والأرقام، يقطعون جدية الحديث فيها بضحكات عالية وعم سيد يخدمهم بحرص وإتقان، فهم ضيوف صاحب المحل الجديد الذي يريد أن يوطد علاقته بهم.
لم يكن في البار غيرهم سوى زبون أرمني قديم، يأتي كل يوم لكي يمضي فترة الظهيرة يراجع أوراقا كثيرة قديمة يخرجها من حقيبة جلدية، أوراقا قد تكون أشعارا وقد تكون حسابات. لكنها تستغرقه كلية، ليصبح منظره في الركن، تحت الضوء الخافت مثيرا للخيال، كأنه بطل في رواية روسية قديمة. وحيد وحدة مطلقة ولكنه راضٍ وراسخ في مقعده.
كان البيت الذي يقصده، يسد حارة قديمة داخل حي الجيزة، يقع إلى جوار كنيسة في حوشها عدد من النخيل السامق العريق.
بعد أن صعد السلم النظيف، وجد الباب الجانبي مواربا، كان هناك زميلان قد حضرا قبله ولكن الاجتماع لم يبدأ بعد.

الكنب البلدي القديم على جانبي الحجرة، وقد فرش بقماش ملون زاهٍ ونظيف، وفي الوسط منضدة رخامية بيضاوية يغطيها مفرش أبيض مشغول.
قدم لهم صاحب البيت الشاي، واستمر بينهم صمت وقلق.. فقد كانت أخبار الاعتقالات تتزايد يوما بعد يوم.. وتشمل الصغار والكبار.
عندما جاء المسئول كان يبدو متعجلا وفي حالة غير طبيعية، قال إنه سينهي الاجتماع بسرعة، وطبعا سننصرف واحدا بعد الآخر، لا أعرف متى يكون اللقاء، المهم الأوراق.. الاعتقالات لا تهدأ، سيصلون إلينا حتما، المهم المحاضر، محاضر الاجتماعات.. وكل الأوراق المطبوعة، لا شيء يجب أن يبقى في البيوت، ولا لقاءات، أحسن شيء هو التصرف بطريقة طبيعية، البقاء في البيت، أو زيارة الأقارب، إذا كان هناك وقت فستصلكم تكليفات جديدة، والآن إلى اللقاء، سأبقى هنا قليلا أرتب بعض الأمور مع الزميل.
كان وجهه طيبا وضخما، وشاربه الكث يهتز من الانفعال. احتضنهم بحرارة وانتهى الاجتماع.
قبل أن يترك عبد الخالق الشارع نظر خلفه فانطبع على عيونه منظر البيت القديم والكنيسة والنخيل.
كان ينظر إلى ضوء الباب عندما لمح أحمد صالح واقفا ساكنا ضد الضوء. ينظر إليه فرحا بوجوده. ثم أقبل عليه مبددا وحشته، ناشرا حوله نوعا خاصّا من المحبة الخالصة. فتح أحمد صالح قميصه وأخذ يجفف عرقه، وملأ عم سيد المنضدة بالأكواب وزجاجات الصودا وزجاجة البراندي المعتاد الذي يشربون منه.
جاء أحمد صالح مبكرا قليلا لكي تتاح له فرصة الجلوس مع عبد الخالق وحدهما قبل أن يبدأ الصخب والضجيج.
منذ سنوات الاعتقال وهما يتبادلان تفاهما إنسانيّا عميقا لا يتغير. أصبح أحمد تقريبا هو الصديق الوحيد الذي يزور عبد الخالق في السويس بين الحين والآخر؛ لكي يمضى معه نهارا أو ليلة هادئة ليس لهما على بعضهما مخالب أو مآخذ. كفا عن الحكم والتأنيب، وقبل كل منهما الآخر خارجا عن الأحداث والأيام. أحمد صالح يمده في آخر الشهر بجنيهات يداوي بها حاله كما يقول. وعبد الخالق يسمع منه دائما أخبار مغامراته النسائية، التي تقترب وتبتعد عن التورط في زواج جديد، وأخبار الألعاب القليلة التي يمارسها في سوق الفضة والأشغال التجارية الجانبية التي تبقي المركب سائرا.
أما السياسة فقد صارت موضوعا يقتربان منه في حذر، يرددان أخبارا وطرائف ولا يغوصان أكثر من هذا حتى لا تبرز الأشواك ويحتد الكلام. ثم ينتهي إلى صمت خانق مرير.
الوضع الإنساني هو موضوعهما المفضل يتفلسفان حوله فلسفة مكررة غير باهرة تدور حول: أن الضياع أو الهروب أو حتى الهزيمة ليست سوى نوع من الإصرار الأحمق على معانٍ إنسانية أصبحت قديمة ومستحيلة. ولكنها هي كل ما يملكون، ويتفقان على أن يتركا الأمر دون اقتناع كبير.
يقول أحمد صالح: منذ أن نشر نسر صلاح الدين جناحيه جلسنا جميعا إلى جوار الحائط نبكي مع أننا لسنا يهودا. وعندما ضم جناحيه وجدنا أنفسنا في العراء.
أصبح أحمد يشرب كثيرا وبنهم في أوقات فراغه، أصبح يحتد كثيرا في جلساته عندما يدور حديث السياسة، فيطلب منهم الصمت أو تغيير الموضوع، ويحاول الاستغراق في شرابه أو إعداد مزة

مبتكرة جديدة، وعندما يراه عبد الخالق في هذه الحال فإنه يشعر بأن صديقه يستعجل نهاية ما، فيشفق عليه ولا يدري كيف يساعده.

أما أحمد صالح فقد كان يقول له، وهو يداعبه: أنت من تعرى على شط الحياة ولم يستحم، أنت غواص في كوب شاي.. شاعر بلا جنون. فيضحك عبد الخالق لكنه يظل يذكر الكلمات.

- ٨ -

كان البار قد بدأ يزدحم. عندما دخل فتحي نور الدين ومعه باقي الشلة كامل رستم المحامي المزدهر، وناشد مراد الصحفي نصف المشهور.
أسرع عم سيد يعد لهم مائدة صغيرة حتى يجلسوا في ارتياح. وامتلأت.. المنضدتان بالسوداني والطعمية، وطلب رستم من عم سيد أن يأمر لهم برأس من الضأن تأتي لهم قرب النهاية. وجاءت زجاجات البيرة والبراندي الوفير.
بدأ كامل رستم يخطب ويتلذذ بصوته العالي فتختلط الكلمات بصوت مضغ الطعام، كان يحكي عن أسرار التعديل الوزاري المقبل لا محالة. وعن فضيحة البنك وزوجة صديقهم التي سحبت من فراش زميله. وصديقهم الذي اشترى مطبعة وقطعة أرض وما زال يتكلم عن الكفاح والطبقة العاملة.
ثم مال رستم على ناشد الصحفي وأخذا يتهامسان بكلام نصف مسموع، لعل أحدا يسأل أو يطلب مزيدا من التفاصيل.
كانت الضوضاء مع الخمر قد بدأت تخترق رأس عبد الخالق، فقال لفتحي نور الدين الذي يجلس إلى جواره:
- أشتاق لهذه الحكايات، لكن ما إن أسمعها حتى أصاب بالغثيان. ولا أطيق طريقته في التلذذ بالفضائح والقذارة. كيف حال الأولاد، وأمهم؟ ستأخذني معك بعد أن ينتهي هذا الهم إلى البيت: أليس كذلك؟ نعم.. نعم معي زفت يا سيدي. زفت من بتاع السويس.
ضمه فتحي نور الدين وهو يضحك في فرح طفولي وقبل رأسه. قال عبد الخالق لنفسه وهو يراقب الأرمني العجوز غارقا في أوراقه، وأمامه كأس الزبيب التي لا تفرغ: يكفيني من الدنيا أن يكون لي صديقان مثل أحمد صالح وفتحي نور الدين. كان يريد أن يكف رستم للحظات عن الكلام، وأن يترك الغبار الذي يثيره كلامه يهدأ، ولكن فمه والطعام والكلام كانوا أمامه شيئا واحدا لا يتوقف عن الحركة. فصاح عبد الخالق في رستم قائلا:
- وبعدين.. وبعدين يا أبو العريف.
كان هذا التعليق كافيا لكي يخرج رستم مخالبه. برقت عيناه بنوع خاص من العدوانية. وتذكر عبد الخالق محاولات رستم القديمة لكي ينال منه ومن منى المصري زوجته السابقة. وكيف كان يتكلم عنهما. وفي كل مكان. لقد حدثه عن منى بالسوء وحدثها عنه. كان يسعى بالوقيعة ملسوعا من سعادتهما التي لم تدم طويلا.
لمح أحمد صالح طيف الموضوعات القديمة يخيم على الجلسة، حاول أن يوقف التدهور لكن رستم وناشد الصحفي كانا قد شكلا جبهة ضد عبد الخالق. وأصبحت العاصفة قادمة لا محالة.
عندما دخل مكتب الضابط الكبير، استقبله الرجل واقفا وقال:
- طبعا الاستدعاء غير رسمي، ولولا الوقت لكنا تقابلنا في مقهى، أريدك أن تشرب معي فنجان قهوة مضبوطا، وأن نتحدث حديثا وديّا.
قال في غضب يحاول أن يتمسك به:
- لا أحب القهوة، لا أحبها عندكم هنا على أي حال.
- لا داعي للحدة.. أنا أريد أن أكون صديقا.
- بكل أسف.. أنا لا أريد.

ـ نحن نعرف أنه لا نشاط لك الآن.. ولكنك تعرف الناس، وهم يعرفونك، نريدك أن تنسى الماضي. أنا أمد لك يدي..
ـ يا سيدي أنا لا أبيع.. ولا أشتري.. لقد أغلقت الدكان اتركني في حالي أرجوك.
ودعه الضابط غاضبا وهو يقول:
ـ الحمقى يضيعون فرص العمر، ولا يطرف لهم جفن، مع السلامة يا مسيري.
كان رستم المحامى يواصل هجومه قائلا:
ـ يدك دائما في ماء بارد. أنت تحب دائما المكان الدافئ في الشتاء، والطراوة في الحر.
أسرع ناشد الصحفي بصوته الرفيع الطفولي يقول:
ـ ليس هو وحده. الجميع يفعلون ذلك.. الموضة الآن هي محاكمة كل من يتحرك. كل من ينجح في شيء ما.
ها هم يحاولون أن يأكلوا كتفه من آخر الذراع مرة أخرى. لقد ترك لهم كل شيء، ولكنهم يحومون حول جسده مثل الغربان. ابن البغي لا يستحي.
قال رستم وهو يضع قطعة كبيرة من لحمة الرأس في فمه، ثم يمسحها بكأس كبيرة:
ـ الأخلاق البرجوازية لا تسمح للواحد بأن يرى حقيقة موقفه أبدا، لقد تعود الواحد أن يعيش وراء دخان كثيف تطلقه ذاته المتضخمة، إني أكره هذا التواضع والصمت الذي يخفي وراءه نوعا لا يغتفر من التعالي السخيف.
سحب عبد الخالق نفسا عميقا من صدره، وأسند ظهره إلى الحائط، حسب حساب أحمد صالح وفتحي نور الدين، وعم سيد الجرسون، كان في الحقيقة يريد أن يبصق في وجه الخطيب الكاذب ولكنه قال:
ـ اسمع يا كامل يا رستم.. إن المؤامرة الشخصية التي تقيم عليها حياتك لا تسمح لك ولا تعطيك رخصة لأن تحكم عليَّ. إنك تحمل رخصا كافية لأشياء أخرى كثيرة. تركت لك ولأمثالك القاهرة، صرت صاحب الصوت العالي، المتحدث الوحيد. ورثت الجيفة. ورائحة كلامك تثير القرف. ماذا تريد بعد ذلك بالضبط؟
أمسكه أحمد صالح من يده، وجذب فتحي نور الدين كامل رستم إلى دورة المياه.
أما ناشد الصحفي فقد أخذ يتلفت حوله باحثا عن لحظة مناسبة للفرار.
وجاء عم سيد يلم الأكواب ويجمع ما بقي من طعام في صينية معدنية. وقد خيم على وجهه وعلى المكان كآبة وحزن.

خرج عبد الخالق المسيري ومعه فتحي نور الدين من البار، في هيئة جيش مهزوم.
قال فتحي:
- أنا مسئول عن هذه البداية السيئة.
استند عبد الخالق على ذراعه وقال:
- لا أحد مسئول، إنهم هكذا دائما، وهذه حياتهم، ليس هناك شيء حقيقي يحدث لهم، ليس عندهم شيء يفعلونه، سوى أن ينشبوا مخالبهم في أول شيء يتحرك، هذه هي المتعة الوحيدة التي يعرفونها. لا تهتم. نحن ما زلنا معا. هذا هو المهم.
كانت مضايقات الناس، وسخافة أقوالهم وأعمالهم تجد طريقها إلى سرداب في نفس المسيري فيقول لنفسه: وما لجرح بميت إيلام.
لمح حيرة طيبة وحرجا إنسانيًا في عيون صديقه فمرت على روحه، نسمة ندية خففت من حرارة الشمس وضوء الشارع في منتصف النهار، ومن صداع الخمر والشجار وتلاشت من رأسه عيون الأصدقاء، وكلماتهم الجارحة التي خرجت ممزوجة بالطعام الممضوغ، والتي حاولت أن تهتك أستار عزلته التي ارتضاها لنفسه بديلا عن الموت أو الجنون.
من أجل هذه المشاحنات الحمقاء ترك القاهرة وحاول أن يستكين في السويس؛ ومن أجلها - أيضا - يعود في زيارات خاطفة، في حلقة مفرغة من العذاب وتعذيب النفس، يحتملها وحده، وقد كفت أشعة الأمل أن تتسرب إلى داخله، إلا للحظات كأنها دوائر ضوء، تحرق هشيم نفسه ولا تضيء لعينيه طريقا.
توقف لكي يشتري سجائر وحلوى لأولاد فتحي، وعندما عثرا على تاكسي أخيرا - استقر هو في المقعد الخلفي. بينما جلس فتحي إلى جوار السائق يحدثه ويقوده وسط الزحام إلى بيته خلف ميدان السيدة زينب قرب زينهم.
فتحي هو الآخر زميل من أيام الاعتقال، تعرف عليه هناك وليس لفتحي علاقة لا بالصحافة ولا بالثقافة، كان موظفا إداريًا صغيرا، ارتبط ارتباطا هامشيًا بالشيوعيين.. ولكنه اعتقل وأمضى هناك أربع سنوات، وعندما خرج تقلب في البطالة وفي وظائف كثيرة حتى استقر أخيرا في وظيفة صغيرة بشركة الكهرباء، يحمل لعبد الخالق نوعا خاصًا من الحب والإعجاب وتربطهما صداقة كأنهما أقارب أو بلديات.
استندا إلى جدار. وأمامهما صحراء مترامية، وقطع صغيرة من أرض خضراء زرعها الزملاء بالخضراوات.
سأل فتحي نور الدين عبد الخالق المسيري بلا مناسبة:
- هل أنا خطر على الأمن العام؟ هل أنا خطر على مصر؟ لم أحلم بالإضرار بأحد، أراجع نفسي بالليل فلا أرى سوى أنني أردت الخير للجميع، أنا في الحقيقة معجب بعبدالناصر، أراه شهما بطلا من الصعيد، هل هو الذي وضعنا هنا؟ هل هو الذي يأمر بالضرب والتعذيب؟ هل تفهم أنت؟ اشرح لي أرجوك، اشرح لي بكلام غير هذا الكلام المرصوص الذي يردده الزملاء الكبار، فهو كلام يزيد الأمر غموضا بالنسبة لي.
قال المسيري، وهو يتقاسم معه سيجارة وحيدة:

ـ كل ما أعرفه هو أننا نعيش كابوسا في منتصف النهار، هم يريدون أن يكسروا شيئا في داخلنا، يريدون أن يحولونا إلى بشر من نوع آخر، ونحن نتمسك بما في داخلنا كأنه الحياة، المهم ألا نخرج من هنا على ظهورنا.
وظل فتحي وعبدالخالق يرددان هذه الكلمة لسنوات: المهم ألا نخرج من هنا موتى.
خرجا ولم يكونا من الأموات، إلا أن حيرة غريبة وقفت حائلا بينهما وبين أن تعود الحياة كما كانت، أصبحت تلك الحيرة هي الرباط، كأن الحياة صارت بعيدة لا تلمس، كأن الناس الذين يخوضونها بحماس ونهم مردة أو غيلان لا تشعر.
استقر فتحي نور الدين وتزوج من فريال لاعبة العرائس التي استطاعت أن تدخل إلى حياته ألوانا بسيطة وجميلة من السعادة، كانت له زوجة وصديقة طيبة، لم ترهقه أبدا بالأسئلة ولا بالمطامح ولا بالطلبات، عرفت كيف تحول شقتهم الصغيرة التي حصلوا عليها في المساكن الشعبية إلى بيت نظيف أنيق، وأنجبت له محمد ونجلاء. كانت فريال شيئا نادرا يدب على الأرض، لا يستحقه سوى شخص طيب مثل فتحي نور الدين.
ظل بيت فتحي وفريال أجمل مكان في القاهرة بالنسبة لعبد الخالق المسيري، فيه يستريح، ويأكل وينام، ويلاعب الأطفال، ويمتد بهم السمر حتى الفجر.
الفقر هنا ليس جارحا، والوحدة مطرودة، والهم يبدده شاي جيد الصنع وخبز ساخن وطعام بسيط، وفريال تتقن الدخول في جمعيات تحل بها الأزمات الدورية، وتتقن شراء الأشياء الرخيصة، وخياطة الملابس والأقمشة الملونة، فتبعث في حياة زوجها وأولادها بهجة بسيطة ميسورة، الشيء الوحيد الذي لم تفلح فيه فريال هو أن تطرد تلك السحابة الداكنة السوداء التي تحل أحيانا فوق رأس فتحي نور الدين، فيغرق في نوبات من الصمت والكآبة، فيبدو وكأنه قد سقط في جب أو عاد إلى المعتقل. ساعتها تحاول معه فريال بكل الحيل وعندما تعجز، تأخذ أولادها وتزور قريبا أو صديقا أو تمضي ليلة عند أهلها في الريف.
كان فتحي في تلك الساعات يبدو كفلاح عجوز يبحث عن إبرة في كوم من التبن.
ويقول فتحي: لولا هذه المرأة التي تزوجتها لكنت الآن مجرما أو مجنونا.
كان يوما شتويّا، قرب رأس السنة، التقى فتحي بعبد الخالق حوالى العاشرة صباحا، جمعا في الليلة الماضية نقودا تكفي المأذون، والغذاء الذي قررا أن يكون في كازينو الحمام، وأن يكون هو العرس والزفة وكل الاحتفال.
جاءت فريال مع منى المصري فقاما من المقهى، واتجهوا جميعا إلى المأذون.
كانت فريال سعيدة، أما منى فكانت تنظر اليهم في حذر.
فريال ترتدي فستانا أزرق، وتعتصر في يديها حقيبة بنية صغيرة، منى المصري كانت ترتدي جاكت شمواه طويلا، وفي صدرها مفتاح فرعون من الفضة، كان فتحي منوما مأخوذا، يبحث في جيبه عن سجائر أو منديل، وكانت منى تسعل سعالا عصبيّا قصيرا، أما عبد الخالق فكان يتصرف في ثقة واستقرار غريبين عليه.
صعدوا إلى غرفة المأذون عن طريق سلم خارجي ضيق، يتقدمهم عبد الخالق، كان المأذون مضحكا متعجلا، ظن عبد الخالق العريس، قال عبد الخالق:
ـ يا ريت. ضحكوا. منى لم تضحك.
في الكازينو على النيل تأمل عبد الخالق وجه فريال زوجة صديقه، لم تكن باهرة الجمال ولكنها كانت سعيدة وراضية بطريقة فريدة لا تنسى. دخل فتحي في الكرسي المجاور لها، ومد ساقيه،

وألقى رأسه إلى الوراء. من حق هذا الكائن المتعب أن يسعد وأن يستريح.
طوال الجلسة كانت منى قلقة متوترة، همست في أذن فريال بكلمات لم يسمعها أحد وأصرت على أن تنصرف مبكرة، بقي عبد الخالق مع العروسين حتى ركبا تاكسيّا قاصدين بيت أهل فريال في الريف.
عندما التقى عبد الخالق بمنى في اليوم التالي وعاتبها لأنها انصرفت مبكرة، قالت في تعمد وتحديد:
ـ أنا أحب فريال جدّا، ولكن طيبتها وسعادتها كانتا فوق احتمالي.
لم يفهم، سألها مرة أخرى، فقالت:
ـ كدت أختنق.
فسكت.

صافحه وجه فريال على باب الشقة، استقبلتهما بترحاب وسعادة، كأنها أم أو أخت في صحن دار عامر وكريم. كان وجهها مجهدا، ولكنه ما زال راضيا وسعيدا يحمل رائحة الأيام الطيبة، في وجهها شيء فلاحي رجولي، طيب وشريف أفسحت لهما مكانهما المعهود على الكنبة إلى جوار النافذة، وقالت:
- تأخرتم. الطعام برد والأولاد أكلوا، هكذا أنتم دائما.
للبيت ضوء خاص لا علاقة له بالمكان الذي يقع فيه. له رائحة نظيفة وهدوء مرتب تتحرك هي فيه في أناقة ودون افتعال، أخرجت له جلبابا أبيض نظيفا وأعد له فتحي الحمام، فغسل عن نفسه كل آثار السفر وصداع البار، كان في الحمام نبات متسلق باذخ الخضرة رطب، وصورة فرعونية لإوز ملون، للصابون رائحة نفاذة، وكذلك للمنشفة. كل شيء يحمل جزءا من روحها المجدة النظيفة التي لا تستسلم للهم أو للضيق. سأل عبد الخالق نفسه للمرة الألف: كيف تعيش فريال بيننا، ولا يلمس روحها ذلك التقاعس العام والإهمال؟ وعندما يسألها كانت تقول ضاحكة: أنا لا أشغل نفسي بكلام فارغ لا جدوى منه.
تناول هو وفتحي طعاما جيد الطهو، ذا مذاق خاص، ولف فتحي سيجارتين بينما أعدت لهما فريال الشاي بالنعناع، فتح النافذة ذات القضبان التي تطل على ساحة يلعب فيها أولاد الحتة الكرة ويثيرون غبارا وضوضاء، إلا أن هدوء البيت ونظافته ينزلان عليهما سكينة وهدوءا خاصّا.
في الشقة التي عاش فيها مع منى كان هناك توتر مخزون وقلق دائم، كانت منى تخرج وتدخل باستمرار كأنها عاصفة، تغير ترتيب الأثاث كل بضعة أيام. عندها دائما أفكار جديدة، كانت مجنونة بالستائر، تبحث عن لون يحتمل تراب القاهرة، ولا يكون داكنا. لا تريد القماش الفاخر الغالي، وتكره القماش الرخيص المطبوع، لا تطيقه.
اشترت جهاز تسجيل لكي تسمع عليه الموسيقى الكلاسيك، ولكنها أرادت أن تسمع مع عبد الخالق كل المصحف المرتل بصوت الشيخ مصطفى إسماعيل. هي مسيحية لكن قلبها مسلم، هي لم تغفر لنفسها أبدا أنها ارتبطت به. تنتابها لحظات صمت وبكاء، ثم تخرج وتعود له ببعض الأزهار.
لم تكن تطيق أن يزورهم أحد، هي تريده لها، لا تعرف كيف تتحرك أمام الآخرين في البيت. السندباد كالإعصار إن يهدأ يمت، تشرب معه ثم تضيق برائحة الخمر. الحياة معها كانت حلما مشحونا بالألوان، لم يكن لليوم أول أو آخر، كانت الساعات تتراكم أو تتساقط أو تستطيل، تقول له: أنت مركز العالم، أنت قلب الدنيا، هي التي كانت كذلك، ولكنه لم يقل لها ذلك، ساحرة كانت تفلت من يده كشعاع الشمس.
قالت فريال وهى تحمل في يدها خطابا أزرق صغيرا:
- جاء هذا من كندا منذ أسبوع، من منى، ألا تريد أن تقرأ؟ به صور لها وللأولاد. ألا تريد؟
أخذ الخطاب والصور، جرى على المسطور وجد اسمه. إنها ترسل له سلاما خاصّا وتريد أن تطمئن عليه.
كم تبدو المسافات بعيدة.
وتلك التلال الخضراء التي تبدو خلفها في الصورة. هل شاهدها قبل ذلك في فيلم؟
دقق في ملامحها، هل تغيرت؟ جاء إلى فمه طعم شفتيها الحاد.
وضع الصور في الظرف وناوله لفريال، التي نظرت إليه، ولم يقل أحد شيئا.

اندفع الأولاد محمد ونجلاء من باب الشقة ناحية عبد الخالق الذي استقبلهما في حضن جلبابه الأبيض. كانت بهما شقاوة وعواطف فياضة. امتلأت بهما الصالة وتبدد ما كان قد خيم عليها من صمت، انشغلت فريال بهما للحظات، وقال فتحي في جدية مفاجئة:
ـ مش عارف.. موضوع السفر... إيه رأيك؟ مش عارف أكلم فريال في الموضوع، رأسها مثل الحجر.
كان هناك مشروع قديم مؤجل، لكي يسافر فتحي نور الدين إلى الكويت مع زميل له في العمل. العرض قائم، ولكنه قد لا يبقى كذلك. فريال تقول: لا. تقول: لو سافرت فسأموت، هكذا رأيت في الأحلام. واحد منا سيموت، فتحي يقول: الأولاد لا شيء عندهم، لا شيء. وفريال تقول: لا نريد، لا شيء. كل هذا ولا شيء؟ كل هذه النعمة ولا شيء؟ أن نقفل علينا الباب وأن نراك بيننا، تغضب وتضحك ولا شيء؟ أنت لا تقدر كل هذه النعم. اسأل عبد الخالق المسيري، لو وافق.. أنا موافقة.
ولم يكن عبد الخالق موافقا، لكنه كان يرى أن رغبة فتحي في السفر تتزايد. كل شيء حولهم يضيق، ولا شيء يتغير، فريال وحدها مصدر الحياة والأمل. ولكنها هي الأخرى متعبة ووجهها متعب، وملابسها قديمة. ويداها خشنتان من المسح والغسيل. الشجاعة تنزوي في الأركان، والحياة الشريفة أصبحت تحتاج إلى أنبياء.
في ٩ يونيو ٧٦ نزل عبد الخالق مع فتحي من نفس هذه الشقة، بعد أن سمعا عبدالناصر يتنحى، كانت أمواج من البشر تخرج معهم، والمدينة مظلمة تضيء سماءها قنابل الصوت والضوء، وقنابل أخرى بعيدة تنفجر في الجبل وعبر النهر.
عندما وصلا إلى ميدان التحرير كان التعب قد هدهما وسد حلقهما الصمت والتراب، اشتد الضرب في السماء فجلسا على الرصيف والميدان أمامهما يضيء وينطفئ. خرجت نسوة متشحات بالسواد قادمات من حي عابدين، كان صراخهن كئيبا ومخيفا.
قال عبد الخالق:
ـ بطلك الصعيدي تركنا.. والسماء تنطبق على الأرض. كان فتحي يبكي في صمت وقال:
ـ اسكت أرجوك..
كانا قد تركا فريال وحيدة في الشقة الجديدة، تبكي وقد أغلقت الباب على نفسها في حجرة خالية من الأثاث.
استمرا سائرين بلا اتجاه في شوارع وسط البلد. من كل الحارات والشوارع الجانبية كانت جموع من الرجال والنسوة والأطفال تخرج لتغمرهما بضجيجها للحظات، ثم تنحسر عنهما وتخلفهما وحيدين بلا اتجاه.
أمام محل حلواني، كان معلم سمين يجلس في هدوء يدخن الشيشة بينما صبيه قد خلع ملابسه كلها ما عدا سروالا قصيرا وأخذ يسكب الماء على رأسه من جردل كبير، ويغمر الشارع حوله بالماء وهو يصيح: حريقة حريقة.
كانت فريال تعد لهما شايا جديدا، بعد أن صرفت الأولاد مرة أخرى، عندما جاءت تحمل صينية الشاي كانت في عينيها دموع.
جلست على منضدة مقابلة لهما، وقد جمعت رأسها بين يديها.
ـ أنا مثل أمي أحلامي لا تنزل الأرض.. أرى نفسي أموت لو سافرت فسأموت.. هل هذا ما تريد؟
رد فتحي في محبة:
ـ يا ستي خلاص.. خلاص.. ينعل أبو السفر وسنينه، قلها يا عبد الخالق.

ظل فتحي بقية المساء يحاول أن يستجلب جوّا من المرح. ولكن فريال كانت تقوم وتختفي في إحدى الغرف، ثم تعود وقد احمرت عيناها وتورمتا.
قام عبد الخالق، ودخـل إلى غـرفة الأولاد لكي يخلع جلبابه وعاد يرتدي القميص والبنطلون. تمسكا به ولكنه كان مصرّا على النزول.
- إلى أين؟
- أبدا.. لا أدري..
ولم يفلح معه أي إلحاح. وهو يغادر الشقة لمح الخطاب موضوعا على المنضدة. فكر في أن يعيد قراءته، أو أن يعاود النظر في وجهها مرة أخرى ولكنه انصرف، قال وهو يغلق الباب:
- قد أمر غدا قبل السفر.

لا بد أن يكون لعبد الخالق المسيري بيت، وأن يكون له ـ أيضا ـ وطن. هكذا خاطب نفسه باللغة الفصحى وهو يهبط سلالم عمارة المساكن الشعبية، تاركا بيت صديقه الذي يحبه، في حالة تصدع وكأنه مشرف على الانهيار.
تلك الرغبة الفاسدة، المفسدة في السفر بحثا عن المال. من زرعها، وكيف تنمو هكذا في كل مكان؟ من الذي سيبقى إذن؟ الكل يرغب في السفر ويتحايل عليه، ومع ذلك ما زالت الشوارع مزدحمة، وما زالت المدارس تقذف بالأولاد في الفسح وفي نهاية الدورات وكأنهم قطعان غير مهذبة وغير مرعية، أين البيت؟ أين الوطن؟
كان يخترق تلالا من التراب ومن أكوام الزبالة. ويخوض في خرابات كانت حدائق أقيمت فيها بيوت خشبية للإيواء السريع. الغسيل في الشوارع، وحلل الطعام على النوافذ والنسوة يتحلقن حول التلفزيون في مداخل الغرف المفتوحة على الشارع.
لم تستطع عيونه أن تتعود أبدا على هذه الفوضى التي لا اسم لها، إنها ليست فقرا وليست تخلفا، إنها حالة مرضية تسلبه الهوية والشعور، ما زال للبيت معنى وصورة في ذهنه، كذلك ما زال للوطن معنى وصورة، صورة خضراء بها فلاحون يعملون في حقل، وعمال يخرجون من مصنع، وأسطوات يعملون في ورش تقع في حارات رطبة ونظيفة، وتلاميذ ينتظمون في صفوف دراسية، لم يعد يرى هذه الصورة، تحيط به تراكيب جديدة مشوهة، يتوسطها التلفزيون الذي لا يكف عن الإرسال، يخطف الأبصار والعقل بتداعيات الصور ووميض الألوان يتكلمون فيه عن مصر غريبة، مصنوعة من ديكورات ملونة وأنوار كاشفة وصبية وفتيات يتمايلون في خلاعة ويرددون اسم مصر في أناشيد وطنية تتميز بالرقاعة.
لا تخلو نافذة من تلفزيون، ورجال ممددين على الأسِرَّة أو الكنب، أمام التلفزيون، وأطفالهم أمامهم على الأرض يغوصون بأصابعهم في أطباق طعام له روائح نفاذة.
الليل ما زال في أوله، والمسلسل التلفزيوني يشد الناس جميعا، فيسود صمت فاجع، كأن وحشا أسطوريّا يزور المدينة كل يوم. فيغتصب النساء، ويسلب الرجال قدرتهم وعقولهم ليتركهم بعد ساعة غير صالحين لشيء، كأنهم مدافعون أغبياء عن مواقع مهزومة.
تنفس الصعداء عندما صعد إلى الشارع الكبير، وخلف وراءه الحي الذي نما بلا منطق ولا اسم كأنه مستنقع صناعي يموج بالبشر، العربات السريعة تجري في الشارع معلنة بأضوائها الباهرة ولونها اللامع انفصالها عن كل شيء واستهتارها بكل ما يحيط بها من بشر وعلاقات.
ظل يصعد في الشارع وهو لا يدري إلى أين يذهب بالضبط. كان يقول لنفسه: لقد أوغلت في السفر يا مسيري؛ السفر في نفس المكان، كل ما يحيط بك غريب ومفاجئ لا تعرفه ولا يعرفك، لقد صرت عجوزا ولا يحق لك أن تبدأ من جديد.
لامس الهواء الجاف القادم من الجبل ـ عبر المقابر ـ العرق الذي يبلل وجهه ويديه أعاده إلى حالة رخوة من اليأس المعتاد. تعود أن يحمل يأسه معه في سير طويل بلا اتجاه كأنه قاصد إلى قلب الغربة أو الفراغ.
ليس معروفا من قال هذا، ولا متى قاله، وليس هناك شهود معتمدون. لكنهم اتهموه بأنه يعمل مع البوليس، هكذا، مع البوليس، مخبرا وكاتب تقارير، اتهموه بأنه ينسق مع المباحث لكي تخترق جلساتهم وتعرف كيف يفكرون!!

كان التوقيت مرعبا، عقب أن هجرته منى المصري، وسافرت. يدور في الشوارع، وبيوت المعارف، والأصدقاء، يسكر ويضيع وينام في أي مكان، يمضي النهار نائما والظهر في مقهى. يمضغ الصداع والأسبرين، وفي الليل يبحث عن مأوى جديد، يتجنب الأصدقاء المقربين، ولا يحب أن يقرب بيت الأسرة. كان يغوص وحيدا، ذقنه غير حليق ورأسه مشتعل بالقسوة والدمار، يتلاطم مع محيط دائرة بلا مركز، ويسقط في نوبات طويلة من تعذيب النفس والإشفاق عليها، ويشتري بكل ما يملك زجاجة خمر رديء، المصائب لا تأتي فرادى ولكنها تتجمع وتتوالى على رأسه الضعيف.
والساعة قد قاربت الرابعة ظهرا، في يوم شتوي كئيب عندما دخل إلى المقهى الجانبي الرخيص الذي يتجمع فيه بعض المثقفين، دخل حاملا همه، وصداعه الدائم، كانت عيونه تحرقه. طلب الشاي، وأسند رأسه بيديه لكي يغطي عيونه الملتهبة.
عندما رفع يديه من عينيه، رأى أمامه فحلا طويلا من المجموعة التي تجلس إلى جواره. مال الفحل واستند على منضدته وقال:
ـ رائحتك أصبحت كريهة، لولا ماضيك، وكونك رجلا كبيرا، لكان الحل علقة لا تنساها ما بقي من عمرك، لكنني أحذرك من المجيء إلى هنا مرة أخرى.. يا مخبر يا ابن الكلب.
إنه لا يتقن الشجار.. ولم يتعود أن يستعمل يديه، ولكنه قذف الفحل الزئيم بمقعد مجاور. استعد المقهى لمعركة بالأيدي والأكواب والمقاعد.
ـ أنا مخبر يا ابن البغي؟ أنا مخبر، وعليك أنت، وما قيمتك؟ ماذا تفعل، ومن أنت؟
ظل يقذفه بالأكواب والكراسي، ويبصق عليه، والفحل يتقافز والناس تحول بينهما.
ضمه الجرسون وصاحب المقهى. وسارا به بعيدا حتى الناصية، وطلبا منه أن يقصر رجله عن المكان قليلا فهؤلاء لا يعرفون التفاهم.
أصابه الحادث في أم رأسه، وظل راقدا عند فتحي نور الدين وفريال لعدة أيام حتى استعاد توازنه، وعاد مرة أخرى إلى الطريق.

وصل إلى الحدائق الخضراء الواسعة المقامة تحت القلعة، وكأنه صحا في مكان غريب نظيف مفروش بالخضرة وبالأضواء. مبنى القلعة العالي المضاء يحجب عنه المدينة بكل ما فيها، وهو يخطو تحت النور ثم يندس في الظلام في لعبة تسرِّي عن روحه وكأنه قطعة شطرنج على رقعة فسيحة.
كان هناك رجل عجوز يدور على النجيل الأخضر وفي يده خرطوم كبير، تنساب منه مياه غزيرة مندفعة، يروي الأرض في استغراق وإتقان. وقد شمر بنطلونه وبدت سيقانه رفيعة قوية ثابتة في الأرض، عربات صغيرة ركنت بجوار الحدائق ونزل منها ركابها. فتى وفتاة وسيدة وأولادها.
كان يسود المكان هدوء واتساق. زاده هذا إحساسا بالغربة فإن تجاور الأشياء، الشيء ونقيضه، أصبح يخيفه، هل هذه هي الحقيقة المحيطة به، أم إن هناك فسادا في قدرته على إدراك الأشياء والربط بينها؟ أن تصبح الحياة مشاهد متجاورة أو لحظات متتابعة لا يشدها شيء ولا يدفعها شيء، هل هكذا يبدأ الجنون والفصام؟
ظل يمارس لعبة النور والظلام. ينتقل من بقعة مضيئة إلى بقعة مظلمة، وهو يقول لنفسه: منذ مدة لم أتذوق اللون الأخضر، لم أعد أذكر أن في حياتي ألوانا، إنني أتردد في خط لوني قصير: يبدأ بالأبيض ويمر بالرمادي وينتهي عند الأسود، أين ذهبت باقي الألوان؟
كانت هذه رحلة الرحلات، فيها اجتمع مع منى المصري وذابا واختلطا وقررا الزواج. حياته قبل رحلة مرسى مطروح شيء وبعدها شيء آخر. الأيام العشرة التي قضاها معها هناك في آخر سبتمبر من ذلك الزمن البعيد، لها سلطان خاص على القلب والروح، تعود ذكراها كأنها القمر أو حليب مصفى. ليس لها حدود تنساب على روحه كأنها غفران يمسح ما يحل به.
كان زمانا غير هذا الزمان، لو سئل فيه لما تصور أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه.
الماء أزرق والرمال بيضاء، قدماه العاريتان وقدماها تتلاقى في قلب ماء دافئ وجسدها القوي الحر المليء بالأسرار يبعث فيه نشوة وهدوءا؛ لأنه قريب ومستحيل. يبزغ ويغيب مثل الشمس هناك. دائما في فرح واحتفال سر غامض يخصه هو وحده.
أيام حسن فيها الحظ، واستوت الريح في الشراع.
كانت قد أخذت منه وأعطته في أيام تعارفهما الأولى في القاهرة، كل ما يؤخذ ويعطى. كانا معا في كل مكان وفي لا مكان - وكان رفيقهم الشعر - تقول له: كل ما تلامسه يضيء. الشعر على طرف لسانك، أذوقه وأنت تقبلني، هو الحل، والخلاص لك. ولدت لي ولكي تقول الشعر. يقرأ لها قصائد مما يحفظ، فتطلب أبياته هو: وتهب كالموج الغامر تضمه في تحقق لم يحلم به. تتوالد معها الأشعار؛ تتوالد وإن لم تكتب. وتختلط بالأحلام الغضة العذراء.
قرارهما السري الذي اتخذاه هو أن يكون شاعرا فقط. يكتب حبه وأحلامه للناس. وذابت قضايا وصراعات كثيرة على لسانها ولسانه، ومحت بجسدها وروحها صفرة الصحراء وعذاب الاعتقال.
كانت هناك دائما، رطبة ندية، تحمل له طعامه وشرابه، وظله، وتدفع عنه الضوء والضوضاء.
كان يعمل بالترجمة في إحدى الوكالات الأجنبية، نقوده كثيرة وإن لم تكن منتظمة، أما هي فلم تعرف أبدا حاجة للنقود. كان المشروع ألا يرتبط هو بعمل منتظم وأن يصنع لنفسه معها تفرغا متصلا للشعر وكانت للمشروع تقاسيم وتفاصيل كثيرة، يزوران فيها القرى ويجمعان الرقص

والأغاني وأشكال النسيج والفضة والفخار، وتجمعت في حقيبتها أوراق كثيرة وكتب، وعناوين، يفردونها في المقاهي ويقضون النهار في ترتيبها وإعادة الترتيب.
بعد أن كاد الصيف ينتهي قررا أن يذهبا إلى مرسى مطروح وكان مفهوما بينهما أن هذه الرحلة هي لأخذ القرار، وتحويل المشروع، عملية واقعية يتحدون بها اختلاف الدين والوضع وكل تلك الاختلافات التي قام فوقها ذلك الارتباط العاصف الغريب. كان مفهوما ـ بينهما أيضا ـ أن كلها اختلافات جوهرية وهامة ـ ليس في حد ذاتها ولكن لأنها متباينة في حياتهما في تركيبهما الشخصي. وكان اكتشاف أي اختلاف جديد يعني اكتشاف فرصة جديدة للقاء.
ذهبا بعيدا ساعة الغروب. كانت تقترب منه وتبتعد. وكان يشعر كأنها الهواء الذي يتنفسه.
عندما التفت إلى الوراء وجد أصوات المدينة قد اختفت تماما. كذلك الناس لم يكن هناك أحد. ليس على الشاطئ الأبيض الممتد بلا نهاية، سوى قارب قديم رابض على جنبه لا يصلح للإبحار.
ارتجف فجأة وهو يسير على النجيل الأخضر، وكأنه أحس بها تسير إلى جواره. نفض عن نفسه البارق الغريب. وعبر شارع صلاح سالم قاصدا المقهى القديم الواقع في حضن الجبل.
صار المقهى الحجري البسيط كازينو، بطريقة رديئة. أعيد تنظيمه، فاختفى الجبل ولم تعد تراه أو تشعر به وامتلأ المكان بلمبات كهربائية ملونة ومناضد مخبوءة سيئة القصد.
تردد في أن يجلس ولكنه رأى منضدة بعيدة تطل على الجرف المنحدر. أمامها الأحجار الكبيرة المقطوعة من الجبل. ملقاة بلا نظام. كان هناك شيء حقيقي في ذلك الفراغ البدائي المنظم الذي تطل عليه المنضدة، فجلس يواجهه وقد أعطى ظهره لدمدمات الناس.

حدق في ظلام الهوة العميقة التي أمامه. فلم تضايقه كتل الظلام بل بعثت في نفسه سكينة. وأخذ جسده يتراخى ويستقر في المقعد عندما جاءت الشيشة وشد منها أنفاسا طويلة صعدت إلى رأسه.
يوم آخر وليل آخر. الخميس ينتهي. ولم يحدث شيء، سافر ولم يسافر لم يغادر نفسه. ولن يغادرها أبدا. الحصار الخفي الذي يحيط به، لم يعد يزعجه كثيرا يلتفت إليه، فيشعر به، فيدفعه عن نفسه، بدمدمة لحن أو كلمات. أخذ الليلة يردد: «كهيعص» يرددها دفعة واحدة ثم يعيدها ممطوطة منغمة، وعلى سحر الحروف فيها يرضى بوحدته ويقبل وجوده الغريب هنا وحيدا. تمنى لو كان معه كرسي قديم وقلم، وخط في بحار الصفحات حروفا وكلمات وأشكالا معلقة في الهواء. لم يجد سوى المفرش الذي يغطي المائدة، فظل ينقر عليه بأصابعه وهو يشرب الشيشة وعصير الليمون البارد.
رفع أبوه - قبل أن يموت بسنوات - قضية ضد المصنع الذي كان يعمل به موظفا قديما في الحسابات؛ لكي يطالب بتعويض أو مكافأة يراها حقًا له.
ظل يتكلم في القضية ليلا ونهارا لسنوات - يراجع مذكرات المحامين ويرجع إلى كتب في القانون، ويمضي نهاره في صحبة وكلاء المحامين والمحضرين متنقلا بين المكاتب والمحاكم ويستعين على ظلم الظالمين - إلى جانب كل ذلك - بالصلاة ليلا وقراءة القرآن.
كان قد بنى بيتهم القديم على يديه، في أطراف الدقي التي كانت حقولا. استنزف البيت كل ما ادخره، واقترضه أو تحايل في الحصول عليه، واستغرق بناء البيت حياة الأسرة كلها: أبيه وأمه وأخيه. وأخواته البنات. وأيضا.. هو. دارت حياتهم حول هذا البيت: غرفه الواسعة، وحديقته الصغيرة، وعناية أبيه المبالغ فيها بكل - تفاصيل البناء، والنجارة والتشطيب، وخوفه الدائم من «العوايد» والضرائب ومن تسرب المياه في الجدران.
وبعد أن استقام البيت واكتملت جدرانه وأسواره، عصف بأبيه «مشروع» جديد بأن يبني فوقه «الدور الثاني» استطال المشروع واستبد ودخل في حيز التنفيذ كان - العزم قد وهن وارتفعت الأسعار وبلغ هو الستين، واستحدث لنفسه قضيته الجديدة المسيطرة.
ولم يكن يملك سوى أن يسمع له. يلفه حب أخرس لذلك الرجل العجوز الوحيد، الذي يموت أمامه بالتدريج من جراء الهم والضيق الذي يحمل به نفسه في الصباح والمساء.
كان حصوله على هذا التعويض يعني كل شيء. يعني انتصارا ما، وإكمالا لهذا البناء الشبحي الذي قام فوق البيت ولم يكتمل. كان يعني نهاية طيبة وشيئا تحقق، ولكن حكم المحكمة كان رفض الدعوى وإلزام المدعي بالمصاريف.
في أيامه الأخيرة كان يسحب جلد خروف أبيض، ويصعد إلى السطح وقد توضأ وترك الماء يجف على وجهه وجلبابه الأبيض. وهناك في بقعة نظيفة في السطح بين الأعمدة، يقيم صلاة هادئة مستقرة لا تنتهي.
كان هو يراقبه عن بعد، وقد جلس عند مدخل السطوح يلفه ظلام، ثم يضيء جلبابه الأبيض نور شاحب.. ومات.
شهر وأسبوع لم يذهب إلى البيت.. لم يرَ أمه المريضة ولم يزر أخاه ولم يسمع شيئا عن أخبار أخواته البنات. يذكرهم فتستيقظ في نفسه عواطف متناقضة من المحبة والإنكار وخيبة الأمل. لكنه

يراهم جميعا غرباء بعيدين ما عدا أمه التي تنتزع ذكراها قلبه من موضعه، وتبعث فيه رغبة في أن يهم من مجلسه ويذهب إليها.
لكنها الآن بعيدة مريضة ـ تحرك له أصابع يديها المعروقتين، وتبتسم في وجهه ابتسامة شاحبة، ويتركها وهي ما زالت تدور بعينيها المندهشتين على وجهه وجسده، تحب أقراص النعناع وكولونيا ماء الليمون، وسجائر قليلة تدخنها خفية، وهى راقدة مستسلمة لرعاية وتسلط العائلة الجديدة التي أقامها أخوه في البيت.
منذ عامين والجسد ساكن والأدوية ثابتة، والجميع ينتظر أمر الله سترحل هي الأخرى قريبا إلى ذلك المعلوم المجهول.
كانت ساعة حرجة بين العصر والمغرب النافذة مفتوحة، ولكن الضوء خانق. كان يدخن سيجارته إلى جوار النافذة، بينما منى المصري قد جمعت ساقيها وكورت جسدها على الكنبة في نصف ظلام. قالت ليس أمامنا سوى أن نكون عمليين. ثقل وقع الكلمة على قلبه كأن الصوت ليس صوتها قالت: هي قررت أن تسافر تريد بيتا وأولادا، وهنا لن يكون لها أبدا أولاد. هذه الحياة لا يمكن، لا معنى لأن أقف على كتفك، أو تقف على كتفي كلنا نغوص، نغرق.
أخرجت سيجارة ودخنتها، أدار وجهه ناحيتها لم يستطع أن يرى تفاصيل وجهها المختبئ تحت الشعر والظلام. كانت قد اتخذت قرارها منذ أيام. ما الذي أفزعها بالضبط؟ هو، أم كل شيء حولها؟
كل الكلمات والمحاولات كانت تنقل إليه شعورا واحدا بالنهاية وبالمستحيل.
في الحمام حاول أن يتماسك، ولكن عمودا من فراغ كان يسري من رأسه إلى قدميه قال لها:
ـ لنخرج لنأكل شيئا في الطريق.
كانت نار الشيشة قد انطفأت، عبث بأصابعه في بقايا الدخان، ولم يشعر بشيء، فكر في أنه قد يكون سقط من فوق هذا الجبل ولم يشعر. موجود هنا على هذا المقعد بعد السقوط. حجر من الأحجار، لكنه لا يثير غبارا ولا يسمع لسقوطه ضوضاء.
قام واقفا، وهو يسأل نفسه: إلى أين؟ إلى النيل، أم إلى سيدنا الحسين؟
كان النيل بعيدا، أما الحسين فليس عليه سوى أن يقطع الشارع، ويسير بحذاء المقابر، فيجد نفسه هناك.

سأل عبد الخالق المسيري نفسه: أيهما جاء أولا: الليل أم النهار؟
أجاب مسرعا: «الليل مصباحي»، ولدت في الليل، وأرى نفسي ـ في الليل أموت.
خرج إلى الطريق بعد منتصف الليل لم يكن ليله مشروعا من المشاريع التي تصنع في المناضد المزدحمة بالرجال والنساء، أو في السيارات التي تخترق المنحنيات إلى مقاصد مبهجة مضيئة. كما لم يكن ليلا حانيا في غرفة تبقى نوافذها مضاءة حتى الفجر. كان ليلا مطرودا. جافيا، جفت فيه المباهج والدموع.
يدخل في الليل إلى الشرنقة القديمة، إلى غرفات ضيقة خالية من الأثاث. ويكون وحيدا. سكون يتصاعد ويُبقي رأسه خارجا، ينظر ويتنفس. تغلق صفحات الكتب.
هو لا يحلم كثيرا في الليل، النهار هو العذاب الحق. الذكريات بالليل يحيطها عازل من الصوت ومن الصدمات. في الليل يجد نفسه ثقيلا، ثابتا على الأرض. أما النهار فإنه يقتلعه ويقذفه ويصنع به ما يشاء.
أسفلت الشارع يلمع صاعدا، هابطا يحده من الجانبين كتل من ظلام المقابر المغبر تتناثر في داخله بقع من الضوء تقاوم الانطفاء، وعبد الخالق المسيري يقطع المسافة التي أمامه حتى ميدان الحسين مسرعا متأكدا من مقصده كأنه ذاهب إلى محل عمله، يسقط ظله أمامه طويلا نحيلا يجذبه إلى عالم مسحور لا يصل أبدا إليه.
يتنفس هذا الأبد الذي يحيط به. الأبد الذي لا يقبله ولا يرفضه. يخترقه، يسير خلاله، ويشعر له بكثافة ككثافة الماء المالح، يطوح ذراعه اليمنى فيه وهو يسير كأنه يريد أن يدرك بها شيئا، أما ذراعه اليسرى فهي مدلاة إلى جواره يتحسس بها وجوده.
كشافات السيارات المبهرة، وغبار المقابر، وبقايا اليوم المتصاعد من المدينة الراقدة في الظلام، يأخذونه جميعا في رحلة عبر زمانه ومكانه، رحلة مكررة من الكشف المحبط والتحقق المستحيل.
يفكر، ولا يفكر، تتعثر الأحلام في الأحجار، ويتصادم الإقبال والإدبار في الحواري الضيقة التي صارت هي كل تلافيف دماغه.
ركنت روحه إلى شاطئ مهجور، قارب قديم، تشربت أخشابه بالماء وتفتتت حوافه في الرمال.
في الغرفة الداخلية، طاقة نور وحيدة، مغطاة بالسلك والعنكبوت تسقط منها أشعة ثابتة مليئة بالغبار. يقع تحتها دولاب الفخار يديره رجل صامت، تتحرك ساقاه ويداه على طين رطب، فتتصاعد أمامه أشكال من الأواني والقلل، فيما يشبه السحر. يحملها صبية ورجال، إلى ساحة واسعة تحت الشمس، تقع أمام بناء غريب الشكل، تطل منه نيران قديمة، تحرق الحجر وتضيء في النهار.
في أطراف المكان أشجار كافور وسنط تحتها «قلل» مكومة كثيرة، وآلاف من القصاري «الفخارية» المرصوصة كالطرابيش، وكلاب تتمطى في الشمس.
وهو صبي كان يذهب إلى هناك مع أخته، لكي ترسم العمال والمنظر الطبيعي. تحمل معها الأوراق وأقلام الرصاص والفحم. تأخذه معها لكي يؤنسها ويحميها. فقد كانت تخاف من الكلاب.
أبدا لم يتكلم ذلك الرجل الجالس خلف الدولاب. كان يرفع عينيه إليهما في إهمال، ثم يعاود التحديق في الطين الطري الذي يتشكل تحت يديه.

كانت رسوم الرصاص والفحم ساحرة بالنسبة له، يتأملها في طريق العودة، ويفرح هو وأخته بها. لكن استغراق الرجل في الطين والدولاب ظل سرّا غامضا يتحدى الاختراق.
الميدان يضج بزحام مفاجئ وضوضاء، كأنه جزيرة يصب فيها كل ما بقي في المدينة من حياة، دخل إلى المدينة مع عربات الجرائد التي تلقى على الأرض بأكوام من الورق محدثة صوتا مكتوما يضيع وسط النداءات المسعورة التي تنطلق من حناجر الرجال والصبية وهم ينادون على الجرائد. وكأن هناك ثورة أو انقلابا. تسربت النداءات إلى عدد من الشوارع الجانبية، وبقيت أكوام الجرائد على الأرض. وقف يتأمل عناوينها. ثم اشترى واحدة منها، وهو لا ينتظر أن يجد شيئا يقرأ. لكنه وقف يقلب صفحاتها ويراقب حركة الميدان وهي تعود إلى سابق عهدها قبل ضجة قدوم الصحف.
كان واقفا تحت عمود من أعمدة النور، يفتش في الصفحات الداخلية عن خبر طريف أو جريمة مثيرة. بعد أن انزلقت عيونه على التصريحات المكررة والأخبار المعادة.
من أجل هذا جاء إلى القاهرة، من أجل أن يقرأ الجرائد مبكرا في سيدنا الحسين. عادة قديمة تمتد إلى أيام كان يشعر فيها أنه يضع يده على نبض قلب حبيب. رأسه والجريدة الآن يدوران في فراغ عقيم. يستعجل نهاية الخبر قبل أن يقرأه ما بين مبتسم وغير مصدق، ويتوقف عند المقالات والأعمدة كأنه يحصي مصارع الرجال.
وجد مقالة لزميل من السنوات القديمة. كان يرتدي مسوح الكهان الزاهدين. يقرأ الكلمات وكأنه يسمعها منه، كاذبة، ملوثة. لا تخفي سوى شبق غريب للحياة والمتع. صعد ببصره إلى رأس المقال فوجد صورته مبتسما، تلمع أسنانه البيضاء ويتساقط الكذب من شفتيه. صنع من الجريدة عمودا ورقيّا رفيعا، وضرب بها ساقه. وتحرك صوب مطعم ممدود في الشارع.
كان يخفي كتب الشيوعية القليلة التي يمتلكها مع بعض المنشورات في أسفل درج من أدراج المكتب الكبير الذي تركه له والده قبل أن يخرج إلى المعاش بسنوات. كانت كلمات الكتب تفتح له عالما سحريّا غريبا، عالما رجوليّا قويّا يعيش فيه رجال قادمون من عالم «جوركي»، حيث العمال أبطال يحملون أحلاما ومآسي، ويتحركون في الفجر خارجين من مصانعهم وسط ضباب ودخان. والمثقفون يتكلمون كلمات قليلة حسنة التركيب عميقة الدلالة. تلامس واقع الحياة وتمتلكه وتحركه. كلمات كأنها طقوس ديانة جديدة يمارسها في الخفاء. فيشعر في نفسه برضا وتفوق، يرددها أمام الناس بحساب، وكأنه يخشى على كلماته، وعليهم، لقد صار يمتلك التفسير والإجابة، ولا يحب أن يلقي بها مرة واحدة.
صار يعرف ما هي الإستراتيجية وما هو التكتيك، أصبح قريبا من حل لغز العمل والنقود وأصبح أسيرا لكلمة العدل والعدالة، كأنه يمتلك مفاتيح المستقبل.
عندما فتح الدرج لم يجد أوراقه مكانها، وجدها موضوعة في مكان ظاهر على المكتب.. دخل أبوه جادّا متجهما وأغلق عليهما الباب، قال:
ـ صرت الآن رجلا، هذه نيران تضعها في بيتي. أوراقك هذه لا مكان لها هنا. تريد أن تهدم كل ما بنيت. نريد هنا أن نتعلم وأن نعيش، وأنت ماذا تريد؟ ليس وراء هذا سوى الخراب. هل تريد أن أجري وراءك في السجون..
لم يعرف بماذا يرد. شعر بأن الكلمات التي يعرفها ليس لها مكان أمام هذا الرجل. تلعثم غاضبا معتذرا، مدافعا عن نفسه قال أبوه في حسم:

ـ لا أريد أن أرى هذه الأوراق هنا. أليس عندك دراسة؟ لا وقت عندنا لمثل هذه الأشياء، التفت لنفسك، ولحياتك.
كان يأكل كبدة ومخّا. ويتأمل باب الحسين المفتوح، عندما شعر بيد توضع على كتفه:
ـ مش معقول.. عبد الخالق المسيري؟
على رأسه كان يقف حمدي عبدالمجيد صديقه الرسام، ومعه ثلاثة من الأجانب. فتى وفتاتان يرتدون ملابس متقاربة. كان حمدي مرحا يتحرك في خفة وانتصار دائم. يبيع لوحاته بأسعار مرتفعة ويقيم معارض مستمرة مرة أو مرتين في السنة، يتكلم عن معارضه نقاد الصحف وينشرون صوره وصور أعماله، فيبدو وكأنه يسير من نصر إلى نصر. كان عبد الخالق يسميه بينه وبين نفسه الكذاب الملون المقبول. وكثيرا ما يفكر فيه وهو في وحدته في السويس، فيحسده أكثر من أي شيء على كل تلك الألوان التي يسكبها على الورق، وتلك الخفة التي يستطيع أن يحتفظ بها لنفسه. كان يقول إنه مثل أم العروسة «فاضية ومشغولة» ويرتاح أحيانا لصحبته. يراقبه في استعراض دائم لذاته. استعراض هو الآن يشاهده ويشترك فيه.
قال حمدي الرسام في احتفالية مرحة:
ـ بسرعة.. بسرعة.. انتهِ من هذا الطعام السخيف، والحق بنا في الفيشاوي.
ثم مال عليه قائلا:
ـ الليلة صيد لا يعوض.

رفعت عنه هذه المصادفة عبء التفكير في الليلة، فمع حمدي وأصدقائه يستطيع أن يكف عن التفكير. يستطيع أن يستمتع بمراقبة ألعاب نارية لا معنى لها ولا خطر منها، تسليه وتنقله إلى الجانب الآخر من الحياة. الجانب الملون المزدحم.
انتهى من طعامه في بطء، لكي يترك لهم فرصة الاستقرار في المقهى، فهو يعرف تلك المقدمات الطويلة التي يتقن حمدي صناعتها، في تعريفهم على المكان، وتقديمهم إلى صاحب المقهى والجرسونات، وكيف يرد على أسئلة الرواد فيما يتعلق بالخواجات وجنسيتهم، وعملهم وكيف يدفع الفضوليين من رواد الليل، ويدافع عن صيده في مهارة وظرف.
عندما وصل إلى المقهى كانت الجلسة قد أخذت شكلها المستقر. الفتى الألماني دفع بكرسيه إلى الخلف واستند على الحائط، ونشر تحت الضوء كتابا مليئا بالخرائط يقرأ فيه، ويضع علامات بقلم رصاص.
كانت «إيفا» قد اقتربت من حمدي بشكل ملحوظ وقد استقرت ذراعها على مسند مقعده، تعبث في حبات السوداني المتناثرة على المنضدة، وتضحك بصوت عالٍ وتقذفه بواحدة. كاشفة عن فم شهواني رفيع وأسنان كبيرة.
كأن «مونيكا» كانت تنتظره. كانت تمد ساقيها على مقعد أخلته لعبد الخالق، وقدمت له سيجارة.. سألته إن كان يتكلم الإنجليزية، هل هو رسام أيضا؟ هل سافر إلى أوربا من قبل؟
كانت تتكلم بسرعة طفلية. وتدخن في شراهة.
لم يبذل حمدي أي جهد في التعارف أو التقديم، بل ترك الأمور تجري في شكل طبيعي. سحب نفسه من صديقته. وقال لعبدالخالق:
- أنت معانا الليلة.. مش كده؟
كان آخر من وصل إلى الاجتماع الذي يعقدونه في مقهى «باريس» الكبير، كانو أربعة وهو الخامس. كانت هي مسئولة الجماعة، سمراء حادة الملامح عصبية، وإن كانت تكسو وجهها بابتسامة ثابتة، قالت في ابتسام ساخر:
- تأخرت. الدقة في المواعيد بداية الالتزام الصحيح.
أحس بحرج، ولم يرد كان جدول الأعمال مزدحما. هناك التقرير السياسي الذي يناقش التطورات السياسية، ثم التثقيف، وكان عليه هو أن يقدم ملخصا لكتاب لكي يقدمه فيما بعد للزملاء العمال، أخذت منه الأوراق، قالت إنها ستقرؤها فيما بعد وترد عليه. وعليه أن يقدم كتابا آخر، عندما كان يراها تتكلم بثقة زائدة وبسرعة، كان يفتقد شيئا حيّا فيما يفعلونه.
في كل اجتماع كان يفكر في طريقة للخروج من لقاءات المقاهي، والكلام المحفوظ المعاد، وعندما كان يشير إلى مشاعره من قريب أو بعيد، كانت تنظر إلى الزملاء وهى تقول:
- لا نريد الدخول في كلام مثقفين. ليس في الاجتماع على الأقل، هناك تكليفات كثيرة.. والوقت محدود.
أخذت مونيكا تتحدث بإنجليزية بسيطة عن «اليوجا» وأخرجت من حقيبتها كتابا قديما جلدته بورق أخضر قديم، وأخذت تشرح له بعض البدايات والتمارين الأولى. لم تترك له فرصة للرد أو حتى السؤال، كانت تأخذ موافقته وكأنها أمر بديهي، ولم يكن هو يريد أن يجهد نفسه في استعادة مفرداته الإنجليزية.

ظل يتطلع إلى وجهها ويتأمل ذلك الحماس الغريب الذي تتكلم به وكأنها تعرفه منذ أعوام.
كانت تسبح في عالم واسع غريب من الأفكار والأوهام، وتحرّك جسدها وساقيها في حرية وكأنها في بيتها، واستغرقه ذلك الخليط الغريب من الحرية والبلاهة، هي من النمسا رفيقة سفر لـ«موريس وإيفا» لا تدري كم ستبقى في القاهرة، ولكن حمدي قدم لهما في بيته المأوى وسهل كثيرا من تنقلاتهم بسيارته الصغيرة. موريس غارق منذ سنوات مع إيفا وحمدي الآن ينضم إلى الطابور. أما هي فلا تشكو، إنها تحب الوحدة. ولا تستمتع بالعلاقات العابرة، هي لا تشعر بأنها مهجورة. فهى تستطيع أن تتصرف مع نفسها، يمكنها أن تتكلم كثيرا، كما يمكنها أن تظل صامتة لأيام. «اليوجا» فتحت لها أسرارا كثيرة لا تعرفها عن نفسها، كشفت لها عن قوى غريبة، وعن أنواع من الإرادة لم تكن تشعر بها من قبل. أهم شيء أنها جعلتها تقبل الناس كما هم.
كانت منى المصري قد رتبت سهرة مع عدد من الأصدقاء في شاليه صغير مجاور للهرم. هناك شواء وشراب كثير، وعدد كبير من الناس.
كان قلقا، ولم يحب الطريقة التي تتصرف بها وسط هذه الجماعة. كان يشعر بأنه غريب، ولم يكن يجد خيوطا لحديث متصل مع أحدهم، أو معها، سألته مرتين: «مالك؟»، فلم يقل شيئا.
كان قد شرب كثيرا، وكذلك هي، وبعد أن انصرف الجميع انشغل هو في جمع الأطباق والزجاجات، لكي يتخلص من توتره وغضبه. اختفت في غرفة داخلية ثم أطفأت الأنوار وخرجت عليه في قميص شفاف لم تكن تستعمل مثله. كان في شكلها شيء غريب كأنها استعارته من الأصدقاء لم يرتح إلى هذا، وتعلقت فوقهما لحظــة صمت ثقيلة.
ـ أنت وما تحب. إذا لم يكن هذا يعجبك فسوف أخلعه. من البداية وأنت مصر على أن تفسد الليلة..
ـ لقد فعلت كل هذا من أجلك.
كان موريس قد أغلق كتابه، وأغلق عينيه وتناوم. بينما حمدي وإيفا يتضاحكان وقد استطالت رقبة حمدي، ولم يعد يخفي نظراته لصدرها وساقيها.
اندس عبد الخالق بين الفتاتين في المقعد الخلفي للسيارة الصغيرة. وهو يشعر بجسد إيفا الباذخ يضغط عليه في لامبالاة، بينما مونيكا لا تكف عن الحديث. كان حمدي يضحك في عصبية ويحكي نكتا مترجمة. بينما احتل موريس المقعد المجاور له.
عندما دخلوا إلى الشقة الصغيرة المليئة بالصور المرسومة والأكواب المتناثرة، بدا حمدي مشتعلا يريد أن يواصل السهر. أخرج زجاجة من النبيذ وأحضر أكوابا وحاول أن يستعيد «إيفا». إلا أنها انشغلت بخلع ملابسها واندست إلى جوار الألماني الضخم الذي تمدد على كنبة صغيرة، نظرت إليهم وهى تقول ضاحكة:
ـ إلى الغد..
أما مونيكا فقد كانت تعد لنفسها المرتبة التي دخلت فيها ونظرت إلى عبد الخالق برأسها كأنها حيوان أليف في شرنقة وأدارت لهم ظهرها.
قال حمدي، وهو يجرع كوبا كبيرا من النبيذ:
ـ معلش.. ضحكوا علينا الخواجات.
حاول حمدي أن ينشغل بالرسم والألوان، أما عبد الخالق المسيري فقد نام في مقعده.

أيقظه أذان الفجر المتصاعد من ميكروفونات متعددة، تحيط به في منطقة باب اللوق.
لم تطل الإغفاءة أكثر من ساعتين، وصحا جسده يؤلمه. كان المكان غريبا بالنسبة له تحت الضوء الخافت الذي يتسلل من النافذة الكبيرة المفتوحة.
«إيفا وموريس» تحت غطاء ملون واحد على الكنبة، و«مونيكا» في داخل حقيبة النوم ملفوفة كأنها دودة ضخمة. لا يظهر منها سوى أطراف شعرها الذابل الخفيف. أما حمدي الرسام صاحب الشقة فقد كان صوت نومه ينبعث من الحجرة الداخلية التي تحتوي على سريره الكبير.
الأكواب متناثرة إلى جوار النائمين، تحتوي على بقايا شاي وقهوة، ونبيذ وأعقاب سجائر، وقشر موز وبرتقال.
رغم كل الحياة التي أمضاها متنقلا في بيوت الغرباء، فإن عبد الخالق لم يألف أبدا هذا الاستيقاظ المفاجئ في مكان غريب. تهاجم هذه اليقظة الغريبة ما بقي في روحه من وحدة وتماسك. أزال آثار النوم والليلة الماضية. وهو يتحرك ببطء في الحمام المليء بالفوط. ووضع لنفسه إبريق شاي على النار. وجمع قدر ما يستطيع من الأكواب، وحملها إلى المطبخ الذي استحالت الحركة فيه وسط «الكراكيب» وأكوام اللوحات والألوان المتناثرة في كل مكان.
مع السيجارة الأولى وكوب الشاي الدافئ، وقف في النافذة الكبيرة التي تطل على عدد من الأشجار في حديقة مجاورة قديمة.
كان أذان الفجر قد انتهى. وخلف دمدمة عالية صادرة من الجوامع المجاورة، وقد اختلطت بأصوات العصافير التي انطلقت في ضوضاء صاخبة مجنونة. كان قد أعطى ظهره لذلك العالم المرتبك الغريب الذي يملأ الشقة.
اليوم كان ـ أيضا ـ يوم جمعة. كان قد مر على زواجه من منى المصري عام أو يزيد. هدأ كل شيء. دخلا وحيدين إلى الرمال الناعمة. كراسات الشعر ذات الأغلفة الملونة السميكة التي تجمعها له من المكتبات القديمة، تحتوي على أسطر قليلة وصفحات بيضاء كثيرة. هو يتلفت حوله، فيرى الأشياء بعيدة، يتحرك في دائرة ساكنة. يجمع الصورة ويتحدى الفراغ بزيارات سريعة للقرى يعود منها موزع الذهن قلقا.
هناك مسافة لا تعبر بين الحلم والواقع. هناك أحلام ملونة تبهت أو نغمات تذوب بلا نهاية.
تسللت إلى شقتهم، رغم الباب المغلق غربة خبيثة. تدفع بمنى المصري إلى ركن بعيد، تعالج فيه قلقها وحدها، وتراقبه وهو يتخبط بين الأوراق، والموسيقى ودخان سجائره الذي لا يتوقف.
كان صباح يوم جمعة، هو يخاف يوم الجمعة دائما. فراغ في اليوم أو قلق من ذكريات الطفولة. يخاف امتداده، وساعة نحس تختبئ فيه قبل الظهر، أو بعد صلاة العصر. وتشيع قلقا وترقبا في كل ساعات النهار.
أعد إفطارا لها، وله، في محاولة للصلح بعد الكدر الذي ساد ليلة أمس.
كانت تسأله في قلق، أسئلة دائرية تحاول حصاره في هم يشمله، ويشمل الدنيا كلها.
كانت تسأله: وبعدين؟ ماذا نفعل؟
الطعام المنمق فقد طعمه. وكذلك كلمات الأحلام. كانت تشعر أنها ابتعدت عن كل شيء عن أسرتها، وعن الأصدقاء الذين تربت معهم وعن زيارات الكنيسة التي كانت تبعث في نفسها طمأنينة. قد ابتعدت عن الرفاق، وهم أيضا ذابوا، تفرغ لمشروع حياتهم والشعر، فسقط في هذه

الشقة المعزولة التي تقع في وسط البلد. يزورهم أصدقاء متناقضون بعضهم يتكلم عن الآثار والأزهار، وبعضهم يتكلم عن الإمبريالية والفقر والتخلف. بعضهم هاجر وبعضهم سافر للعمل ومن بقي يسأل:
ـ وبعدين؟
في تصاعد يثقل قلبه وروحها.
كأنهم استحالوا إلى عيون تتفرج وأيدٍ تتساءل، وهو يدور باحثا عن مخرج وكل المنافذ تضيق.
كان الصباح صباح جمعة، جلست على مائدة الإفطار التي أعدها تقطع فتات الخبز ولا تأكل:
ـ لا داعي للنهايات الدرامية الفاجعة. أرسلت لأخي وديع في كندا أخبره أنني صرت الآن جاهزة للهجرة. سأنسحب من حياتك في هدوء. لا يمكن أن أراك هكذا. فأرا في مصيدة، ولا يمكن أن أعيش أنا هكذا. لا يمكن أن يصيبك من ناحيتي ضرر. يمكن أن تبقى هنا في الشقة إلى أن تدبر لك مكانا. سأرتب هذا مع الأصدقاء، قد تكون حمولك بدوني أخف. هل تسمعني؟ لِمَ لا ترد؟
كان كل الهواء ساكنا، مكوما لا نسمة هواء. كأن قيظ أغسطس سيستمر إلى الأبد.
فكر عبد الخالق المسيري يومها: ليست منى المصري هي التي تهجره، الحياة تنسحب وتتركه جافًّا ملقى على الشاطئ الحجري إلى الأبد.
انتابته نوبة سعال جاف. نظر خلفه إلى الشقة المرتبكة، ورأى ضوء النهار يفرشها ببطء كأنه يدخل إلى أهل الكهف، أخرجت «مونيكا» رأسها من حقيبة النوم ووضعت يدها على عينيها، وأشارت إلى ضوء النافذة. كان لون وجهها شاحبا باهتا كأنها ميتة.
أسرع يصلح من شأنه في صمت، وغادر الشقة متسللا وأغلق خلفه الباب في هدوء.
لم تكن القاهرة قد استيقظت بعد. لم يكن في الشارع سوى بعض عربات الزبالة تجرها حمير هزيلة، يعتليها صبية اختفت ملامحهم، يرتدون أسمالا لا لون لها.
ولم يجد الفجر ما يستقبله به سوى نسمة باردة سريعة، لامست وجهه، أحس بحرقة في عينيه وقال لنفسه: لِمَ العالم خالٍ هكذا كأن لم يكن هناك أبدا بشر؟

مع ضوء الفجر سأل عبد الخالق المسيري نفسه: هل ما مر من الحياة أصعب، أم تلك الظلمة المغبرة التي يسير إليها مترددا بين الشوارع الجانبية والطريق الكبير، الطريق الذي يقوده عبر ميدان التحرير والكباري إلى الدقي: حيث بيته وبيت أبيه وأخيه وغرفة من حبلت به؟
مغرم هو بالسؤال الذي لا إجابة له.
هل تحمل الأيام له شربة ماء، أم إن أمامه صحراء ورمالا؟ القاهرة صامتة لا تجيب. نوافذها موصدة غامضة. ترد الأيدي الممتدة نحوها في سؤال ورجاء. وهو يدب في طرقاتها في وهن. لا يُسمع لخطواته وقع. وليس في روحه نشيد.
كانت الكباري العلوية الحديدية تحجب عنه اتساع السماء التي لونها الضوء. أعمدتها القصيرة الغليظة المتتالية كأنها أسوار سجون بعيدة لصبية أبرياء.
أسرع في خطوه وهو يعبر الميدان الخالي إلا من عربات مسرعة قليلة، وتمنى أن يصل سالما إلى النيل. بدأ سواد أسفلت الشارع يلمع بندى الصباح والأضواء المنعكسة عليه. أحس برطوبة ماء النيل تتخلل جسده العجوز باعثة فيه بعض الهمة. على كوبري قصر النيل لامس الحديد المندى البارد، واستنشق بعمق رائحة المدينة التي يعرفها.
لم يكن السور الذي يحيط بيتهم قد اكتمل بعد. أرض فراغ وحقول صغيرة تحيط به من كل جانب. في الناحية الشرقية، سكنت عائلة «أم رضا» في عشة مصنوعة من الصفيح والطين مقامة تحت شجرة ليمون كبيرة.
شجرة فارهة ضخمة كثيفة الأوراق، صحيحة كثيرة الأزهار والثمر. كانت أم رضا تعيش من بيع ثمارها وبيض الدجاج، وأشياء أخرى كثيرة تقضيها أو تبيعها لأصحاب البيوت المجاورة.
تعيش في قطعة الأرض هذه، كأنها ملكة، مالكة، تحت شجرة الليمون الفارشة. على مدار السنة، تتداخل خضرة الأوراق اللامعة، مع الزهر الأبيض الناصع مع صفرة الليمون المفرحة عندما ينضج على الشجر. كانت «أم رضا» تصنع في قطعة الأرض الفراغ هذه، تحت شجرة الليمون. بهجة ونظافة لا تشوبها شائبة.
ورغم أن «رضا» كان ابنها الصغير، فإن الجميع كانوا ينادونها «أم رضا». كان في مثل سنه مليئا بالحيوية ذكي العينين، باسم الوجه ضحوكا. يدخل كل البيوت ويخرج منها يجر وراءه عجلات من بكر وصفيح. تناديه النساء والفتيات ويتمنى كل الأطفال أن يلعبوا معه. لم يكن يشغله عن بهجة الحياة لا مدرسة ولا تعليم، ولا يحجبه عن ملامستها لا بنطلون أو حتى حذاء.
كان صديقا لعبد الخالق، لم تكن تفصلهم سوى المدرسة. وضيق أمه وإخوته بأن يبقى جالسا في العشة مع رضا وأم رضا طوال النهار، لم يبقَ إلا أن يأكل وينام هناك!
كان رضا بارع اليدين يستطيع أن يصنع بيديه ما يشاء من الطين والحديد والحجر. له هوايات كثيرة متنوعة، ولكن جمع قطع الحديد وفكها وربطها كانت أحب الهوايات وأعظمها. يجوبان المنطقة كلها بحثا عن قطع الحديد والعلب وكل ما له شكل غريب. ليصنع رضا من هذه الأشياء عجلات وعربات ونحلا وعصافير، ومن الأوراق والفتل يصنع طائرات ومدافع. لم يكن رضا يحتفظ بما يصنعه، بل كان يغدق بها على كل من حوله من أطفال.
عندما عاد في العصر من المدرسة، كان كل شيء قد انتهى.. عثر رضا على قطعة حديد كبيرة، أحضرها وأخذ يعالج فكها تحت الشجرة. لم تكن قطعة الحديد سوى قنبلة قديمة منسية في إحدى

الخرابات. انفجرت لكي تمزق جسده إلى قطع.
ظل يسمع تفاصيل الحادثة لسنوات، يجمع التفاصيل قطعة قطعة. لم يدرِ كيف انسحبت أم رضا من قطعة الأرض. ولا أين اختفت. ولم يعد يذكر متى ذبلت شجرة الليمون وفقدت ما كان فوقها وتحتها من بهجة وحياة.
كانت مياه النيل ساكنة يعلوها ضباب كثيف يرتفع ببطء، لكي يرى النهر عملاقا راقدا لا يتحرك، انطفأت أنوار الفنادق وأعمدة الشارع والكوبري، يحب عبد الخالق المسيري أن يشهد هذه التحولات حيث لا تذوب اللحظة في اللحظة التي تليها، بل تعلن عن الانتهاء بصراحة.
واصل السير إلى منطقة الحدائق والأشجار الكثيفة. وراقب بعض الملاهي وهى تقذف الزبائن الأخيرة والعاملين. وهو يشق طريقه إلى ميدان الدقي.
وقفت منى المصري خلف زجاج المطار. كانت تحمل حقائب قليلة وقد علقت حقيبتها الجلدية الشهيرة على كتفها. ما زال في الحقيبة أوراق له، بها كلماته ورسائله وقطع من الشعر كتبها ولم يكملها وبها صور له معها، وتذكارات من البحر والصحراء.
وقفت خلف الزجاج، تتحدث مع ضابط. كأنه يعرف ما تقول.
نظرت ناحيته نظرة أخيرة.
عندما استدارت كانت كأنها كوكب خرج عن مداره وتفتت إلى شظايا متناثرة.
عندما وصل إلى الميدان، كانت الحياة قد بدأت تدب فيه. جلس إلى المقهى المجاور لبائع الجرائد الكبير، كان يفرش الجرائد والمجلات والكتب.
جلس على كرسي مجاور له. وطلب شايا ودخانا. الجرسون جديد لا يعرفه. وفي المقهى من الداخل بعض العمال، أما الخارج فالكراسي مرصوصة والرصيف نظيف.
عليه الآن أن يهدأ، وأن يستعد للذهاب إلى بيت العائلة. المكان أقوى في الذهن منه في الواقع. ثقيل مزدحم. هناك أخوه سعيد، أو الشيخ سعيد أستاذ الشريعة الذي خلع جبته وقفطانه منذ سنوات. سيجده وعائلته. زوجته والأولاد مؤسسة غريبة. استطاع سعيد أن يحشو حياتهم بالنقد بعد أن تغرب في البلاد العربية لخمس سنوات. سيجد أيضا أمه على البرزخ بين الحياة والموت، وعليه أن يسير على الصراط وأن يستعد لاقتحام كل هذه الأشواك.
هو لا يزورهم في كل مرة يحضر من السويس. ولكنه في هذه المرة يشعر بأن أمه تناديه وأن عليه أن يواصل معها حوارا كاد أن ينقطع.
قالت له أمه: كنت عزيزا، جميلا، ولكنك لم تكن تكف ليلا عن البكاء. كان أبوك يطردنا أنا وأنت من الحجرة لكي ينام. فأحملك وأقف بك عند الباب الكبير حتى تهدأ وتنام.
سعيد كان يراقبنا وقد استيقظ للصلاة في الفجر، سعيد كان دائما قويّا مستقلا صامتا لا يحب الكلام.
أما أنت ـ يا قلبي ـ حتى بعد أن صرت رجلا.. أراك كثيرا تائها ملهوفا تبكي في الليل.
توالى الصباح سريعا على الميدان، وانتشرت السيارات والأتوبيسات تسير في كل اتجاه، وآن له أن يقوم قاصدا محطته التالية.
جمع من بائع الجرائد بعض المجلات والكتب الدينية لأخيه سعيد. واشترى من بائع السجائر الكبير، أقراص النعناع وزجاجة من كولونيا الليمون لأمه. وواصل السير في اتجاه ما كان يوما ما أطراف الدقي، حيث يقع ما كان يوما ما بيتا له.

كان البيت قديما قصيرا. تحيط به مبانٍ حديثة وعمارات عالية. دور واحد، ترتفع فوقه بعض الأعمدة الخرسانية والطوب الأحمر، في مشروع لم يكتمل لدور ثانٍ.
من ناصية الشارع، وقبل أن يدخل، كان يستطيع أن يرى نافذة الغرفة التي تقيم فيها أمه. وقد فتحت. وأخرج على نافذتها فرش السرير.
وجد الباب مفتوحا. وفي لحظات كان يقبلها ويلمس الماء البارد الباقي على وجهها بعد أن مسحته بالفوطة المبللة.
منذ مدة طويلة لم يلمس أحدا، ولم يلمسه أحد.
مدت يدها تتحسس رأسه ووجهه، ودمدمت بكلمات مخنوقة حسبها دعاء له.
كانت نوافذ الغرفة مفتوحة، وهى راقدة في سريرها تحت النافذة، لم يستطع هواء الصباح بعد أن يجدد ما في الغرفة من رائحة الرقاد والمرض والأدوية.
سحب كرسيّا وجلس في أقرب مكان لفراشها. أخذ يديها وقبلهما، مرة أخرى وضع أقراص النعناع في يدها وسكب ماء الليمون على صدرها وجبينها.
كانت أظافرها جافة وطويلة ومتسخة.
أحست زوجة أخيه بهما فجاءت تحمل لها بعض الطعام. تكلمت بصوت عالٍ سريع، لم يعد خافيا أن المكان يضيق بهذا الجسد الراقد المعذب.
كانت قدرية زوجة أخيه سمينة بيضاء، ما زالت بعد كل هذه السنوات غريبة على المكان، تراعي المريضة الراقدة بكل ما يسكنها من صبر، وبكل ما يفيض من طاقة واهتمام.
لكنها كانت تهمس له في كل زيارة بجملة مكررة محفوظة: أين أخواتك البنات؟ أنت تزورنا أكثر منهن.. ألسن هن أولى برعايتها مني؟
كانت تتحدث عنها دائما بضمير الغائب. وأمه تراقبها وهي تتحرك في الغرفة في قلق وخوف. لا يرتاح الوجه العجوز إلا عندما تخرج من الغرفة.
أمسكت قدرية بزجاجة ماء الليمون. وشمت ما فيها. ثم عدلت في مهارة من وضع الجسد الراقد لكي تتناول الطعام. دمدمت أمه بأصوات لم يلتفت إليها أحد.
قالت قدرية:
ـ سأصنع لك فنجان قهوة من بن الشيخ سعيد.
رفعت الأم وجهها في رجاء، فقالت:
ـ وأنت أيضا.. طبعا ما دام عبد الخالق هنا.. يبدأ الدلع ويفسد النظام، وسيجارة كمان يا ستي علشان خاطره.
مدت أمه بيدها التي تحمل أقراص النعناع لكي تريها لقدرية، فعاد يقبل يدها المعروقة من جديد.
انشغل بترتيب الأشياء حولها، لم تكن تكف عن الهمهمة بأشياء لا يفهمها بالضبط، ولكنها كانت خليطا من الذكريات والشكاوى والدعاء.
جاءت قطة سوداء كبيرة. وجلست على الملاءة المفروشة على حافة النافذة. عادت الأم تتناول طعامها القليل في عناء واستغراق، ثم طلبت منه كوب ماء بالإشارة. وطلبت أن يرفع الأطباق، ثم طلبت أن يعيد جسدها إلى وضعه السابق.
فتح الراديو الصغير الموضوع إلى جوارها، فانطلقت منه أغنيات الصباح.

كان البيت ما زال ساكنا. الأولاد لم يستيقظوا بعد، وأغلب الظن أن سعيدا في حجرته يصلي أو يقرأ القرآن.
أطل من النافذة. ومن هناك رأى ما تبقى من شجرة الليمون كانت ذابلة محصورة بين العمارات، لم يكن يظهر منها سوى ساق غليظة قديمة خشنة، وأوراق مصفرة ذابلة..
سأل وهو لا ينتظر إجابة:
ـ هل ما زالت الليمونة تطرح؟
ـ مدت رقبتها ناحيته وهمهمت بكلام كثير.
دخلت قدرية تحمل فنجان قهوة عبق الرائحة، وكوبا به كمية صغيرة لأمه ومن خلفها أطل جسد سعيد الممتلئ بجلبابه الأبيض، وقال:
ـ يا مرحب. خطوة عزيزة.. أوحشتنا يا رجل.

مد عبد الخالق المسيري يده لأخيه، وقدم له المجلات والكتب الدينية التي اشتراها له من ميدان الدقي. قال:
- أنا أيضا مشتاق إليك يا أخي، خذ هذه المجلات فسوف ألحق بك.
هذا يوم جمعة، معتق قديم، قال لنفسه: أمسك باليوم، عانقه أو ذب فيه إن استطعت، ولن تستطيع أبدا.. فهو قد فات.
أمه الراقدة.. اتساع البيت، وارتفاع السقف وطعم القهوة المرة. كل هذا يحمله إلى حال جديد، يشعر بحدود جسده، وبزمن عجيب، خليط بين الماضي والمستقبل.
كل الأشياء العملية المفيدة التي يمكن أن يقوم بها، أن يقدمها، حاضرة. ولكنها تافهة مقطوعة الذيل، تسقط في سلة المهملات، التي امتلأت بأوراق الدواء وقشر البرتقال. حملها كي يلقي بها في المطبخ متوددا للحظة، معتذرا للوجود.
عاد كي يجد أمه قد ابتلعت قهوتها بسرعة. وطاف بوجهها خيال رضا واستسلام. كان الراديو يدش كلاما متصلا، فأسكته وراح يراقب فراغ الحجرة ثقيل الوقع.
اقترب يمسك بيدها الضعيفة الباردة بين يديه.
تغيرت أشياء كثيرة فيها وفيما حولها.. لكن بقي لها هذا الوجود الطاغي الذي يخترق كل الحجب والحواجز، وينفذ إليه في الأعماق، صار لها - الآن - وجود مطلق لا يناقش.
لا يرى في عينيها نفسه فقط ولكنه يرى الوجود كله وقد استحال إلى جبل من القطن الأبيض، يبتلع الصوت والصورة.
كانت تحرك شفتيها، جفون عينيها، يديها، أصابعها، هذا فقط هو ما يتحرك، لا بد أن القلب يتحرك، وشرايين في الدماغ، تدفع أمامها صورا وخيالات، وقصاصات من مواقف وكلمات.
عبر يدها، جلدية الملمس، التي خلت من الحرارة ومن الحياة، انتقل إليه تيار بارد من الاستسلام.
كانت تشير إليه وتسأل لسانها الثقيل في فراغ، تهز رأسها في ارتعاش فيشير لها في تأكيد. هي لم تقل، وهو لم يفهم. لكنهما ملتقيان على البرزخ بين السماء والأرض.
بعد أن سافرت منى المصري إلى كندا، كتب لها خطابا ولم يرسله: رحلتْ، أما أنا فلم أرحل.. شب في الدار حريق. الأشجار والجدران والأحلام، فحم بللته مياه.
أذكرك كما يذكر رضيع أمه، فم ملهوف، ولا ثدي.
القطارات تحملني دائما إليك، ولا وصول.
تسقط كل الأزهار بلا ثمرة. الجسد العاري لا تستره في الشتاء الخرق.
مد يده تحت الغطاء يلامسها، بعد الفراغ من الحب فوجدها باردة تبكي قالت: نصفي معك، النصف الآخر لا أدري أين ذهب.
سكتت، عندما قال لها: أحبك فوق الطاقة، وبلا مبرر.
للوقت هنا إيقاع آخر، اللحظات محشوة بالماضي ثقيلة. تحدثه بلا كلمات عن ذلك العمر الذي توقف.
وقفت قدرية زوجة أخيه على رأسه. وكأنها تستعجله أن يقوم من الحجرة حتى تنفرد بالمريضة. لكي يفرغا من طقوس الصباح، أصبح الكل معها يستعجل أمرا ما. هي وحدها التي تتعلق بالزمن.

ترددت إليه بعينيها كي يبقى إلى جوارها تشير إلى الراديو وتقدم له أقراص النعناع. وهو يلتفت حوله. وقد تصلبت عضلات رقبته وأسقط في يده.
بعيدة هي. لا يستطيع أن يقدم لها شيئا. ولا يقدر على الانسحاب.

كانت غرفة سعيد تقع في الطرف المقابل من البيت. شبه معزولة مغلقة دائما. يشعل فيها أحيانا عودا من البخور. فتبقى فيها رائحة خاصة مختلطة بوضوئه وصلاته ورائحة الكتب القديمة التي لا يقرأ غيرها.
بينه، وبين سعيد حوار حميم لم ينقطع منذ أن كان سعيد في الإخوان. رغم كل ما حدث، فإنهما يبقيان معا حوارا دائرا وكأنهما يفكران معا في مصير البلد.
منذ سنوات عندما غادر سعيد مصر إلى الإمارات، كان يقول لي إنه يهرب برأيه ودينه. وإنه لا يرى معنى للبقاء هنا وسط أحلام الاشتراكية البلهاء وعسف النظام والطرق المغلقة، وقال: هذه قصور من ورق. وأنتم تخدعون أنفسكم.
هناك في الغربة. شاخ سعيد. أوغلت به الأيام في أرض يقف فيها وحده. لم يعد يجد معنى للكلام أو الجدل. أصبح يراقب، تراكم الوقت والنقود، وعشرات التفاصيل المتعلقة بمصروفات البيت وسعر التحويل، والمدخرات والودائع. لا يعرف هدوء النفس إلا بالصلاة وقراءة القرآن.
زاد وزنه كثيرا، وانقطع عن لقاء الأصدقاء، انتهت سنوات الإعارة، عاد إلى الكلية يلقي دروس الشريعة، ويسير جنب الحيط. تكور وأغلق أبواب روحه حريصا خائفا يتذكر صباه وشبابه كأنه شخص آخر.
دخل عليه عبد الخالق وقال مداعبا:
- ألا تفتح نوافذك هذه أبدا؟
- وماذا سيدخل؟ ضوضاء.. وغبار..
نظر سعيد إليه في محبة واشتياق، وقال له:
- اعتصم معي في غرفتي. يكفيك لف ودوران.
كانوا قد تجمعوا حول أبيهم يسمعون الراديو، بعد أن احترقت القاهرة، كان سعيد غائبا منذ أيام مع الفدائيين في القناة. لم يستطع أحد أن يوقفه. وظل أبوه يسأل عنه ويحاول أن يستعين بمعارفه لكي يعيدوه إلى البيت. كان هو فرحا يدافع عن أخيه وينسج له في خياله صورا وحكايات من البطولة والاستشهاد. كان خروجه مع الفدائيين شيئا خارقا واضحا وسط تراث من الأشياء المتوسطة الصغيرة.
عندما احترقت القاهرة تصور أن أخاه سوف يأتي في جيش من الأبطال لكي يقلب البلد، ويطرد الإنجليز، ويسافر في أرض حرة من الإسكندرية إلى السودان، كان يدعو الله ألا تنجح اتصالات أبيه، وألا يعرف مكان سعيد، وحلم ذات ليلة أن أخاه جريح في كهف جبلي وأنه يحمل له الماء والطعام.
وفي تلك الليلة، سمع دقات خافتة على زجاج الباب. كانت أمه نائمة في مقعدها من الإرهاق، وكان هو بين النوم واليقظة، يسمع برنامجا غنائيّا في الراديو.
هب أبوه واقفا وأخذ سعيدا في حضنه. أجهش الاثنان في البكاء.
أغلق سعيد غرفته على نفسه، وظل أياما لا يخرج ولا يكلم أحدا، أما هو فقد ظل لفترة يتهم أباه ونفسه، بأنهما هما السبب وأنهما أقرب إلى الخونة والجواسيس.
قال سعيد، وهو يقلب في المجلات التي حملها له عبد الخالق:
- كبرنا.. لم نعد، نصلح لشيء.

ـ لا بل هي الأيام لا وجه لها ولا قفا.
ضحكا.. أخذ سعيد يحكي له عن الكلية. وعن الدائرة الراكدة التي يتحرك فيها. حتى البحث والمناقشات في الفقه والشريعة، أصبحت من رابع المستحيلات. إنهم يتحدثون فقط عن الملازم، وعن الدروس، وعن الإعارات والإضافي، قال سعيد:
ـ صارت بيني وبينهم فراسخ. صرت راضيا بما عندي. راغبا عما عندهم. وأنت ألم تهدأ بعد؟
يستطيع سعيد أن يخترق معه السنوات، وأن يعيده إلى أسئلة بسيطة وإجابات مستحيلة.
ـ أنت يا عبد الخالق فشلي الأول. لم أستطع أن أستردك من ماركس ولينين.
ـ كبرنا على الوعظ يا شيخ سعيد.
ـ أنت لم تكبر أبدا، ما زلت بالنسبة لي أخي الصغير التائه. وأنا هناك في الغربة كنت أراك في أحلامي وقد اشتعلت نيران في رأسك. أقرأ لك آيات القرآن. وأدعو الله أن يتوب عليك من الشيوعية والشعر.
ـ تاب الله علينا.. لا شيوعية ولا شعر.
ـ كلنا مذبذبون. لا نحن من هؤلاء.. ولا نحن من هؤلاء.
كان سعيد يقلب في الأوراق الموضوعة أمامه على منضدته الأرضية المنخفضة التي يستعملها للكتابة والقراءة. وقد جمع إلى جوارها سجادة الصلاة، والمصحف الكبير، وبعض كتب التفسير.
صمت للحظات وعرف عبد الخالق أنه سيعود إلى موضوع البيت والاستقرار ـ وصلاح الحال. دخلت قدرية تحمل صينية شاي عليها أكواب صغيرة. وقفت وكأنها تتبادل مع سعيد حوارا صامتا، فتأكد له أن الموضوع سيفتح لا محالة. لم نكمل الدور الثاني، لم لا تستقر، لم لا تتزوج قبل فوات الأوان؟
يعتصم عبد الخالق حيال هذا الموضوع المكرر بنوع من التعالي الأجوف الذي يخفي خوفا دفينا لا يحب أن يدعه يظهر.
لقد أصبح الإقدام على أي نوع من التصرفات العملية حماقة، لا يرى لها مبررا، ولا يقدر على احتمال سخفها.
لا يمكن أن يفهم سعيد هذا ولا قدرية. لا أحد يستطيع أن يشاركه هذا الشعور، هذا هو فساده الخاص. الكامن في النخاع. ليست هناك بطولة أو فخر في أن تبقى حياته هكذا: إنه خوف ينمو كل يوم، ويتعلم كيف يعتاد على صحبته.
كانت القرية بعيدة في وسط النوبة القديمة قبل أن تغرق، يقيم هو ومنى المصري عند صديق رسام استأجر بيتا طينيّا صغيرا، وراح يرسم ويسجل لحظات الوداع لأرض جميلة تغرق.
يحيط بهم في القرية، وفي البيت هدوء ضاغط، كأنه صمت كنيسة خالية. يراقبون الشمس والقمر والنيل الرابض الضخم. يتحركون في هدوء كأنهم يحاذرون من إزعاج الصمت.
يخرج مع منى في جولات بعيدة حتى يفقد كل أثر للقرية، وللنوبيين والنوبيات القلائل الذين يستعدون في أسى وصمت للرحيل.
فوق التلال البعيدة، أو عند منحنى مهجور للنهر، كان يلتقط أحجارا صغيرة مستديرة غريبة اللون والملمس. لم يلمسها أحد من قبله، ثم يتركها وقد أفزعه هذا الشعور.
كانت منى صافية، تستغرق في تأمل الأشياء، أو قد زال عنها قلقها وتوترها وانفتحت روحها لتلقي الشمس والهواء.

في ذلك الصباح كانت قد غسلت له جسده بماء بارد جلبته من النهر. واستعدوا جميعا لشاي وإفطار متأخر تحت الشمس، عندما جاءهم على غير العادة ضيف غريب. بدوي عجوز رحال يتاجر في الدخان الأخضر الذي يجلبه من السودان.
مع الشاي الساخن والخبز الجاف، تحدث الشيخ حسين عن حياته، رحلة طويلة مع النهر والصحراء. مع فراغ الليل والقمر الدوار. مع وباء الكوليرا، التي أبادت له الزوجات والنخيل والأبناء جميعا، وبقي وحيدا في البيت لا زرع ولا عيال. بقي وحيدا بين الجدران. والأحجار. طلعت عليه شموس وأقمار وهو يجوب النوبة مترددا بين الحدود والحدود. ينزل في القرى ضيفا، يأكل الخبز الجاف ويشرب الشاي، ويشعل شيشة صغيرة يشرب منها الدخان.
كان له وجه صلب قديم، بعد أن شرب الشاي أسند رأسه إلى حجر كبير، ومد جسده الفارع الطويل على الأرض وكأنه جزء منها وسط الرمال والأحجار.
حرك أصابع قدميه، وجمع يديه تحت رأسه، وحرك عينيه في قبة السماء، وقال بعربية ناصعة:
- «راحة البدن».. أكبر نعمة على الأرض.
«راحة البدن»، قالها في شوق صادق تردد في أرجاء الأرض.
ردت قدرية خلفها الباب، وأصبحت الغرفة وكأنها مكان معزول عن العالم، هل تحمل معها قلقا مكتوما وأحلاما مؤجلة تريد أن تنجزها؟ إنها لا تتعلم أبدا القانون البارد الذي أصبح يسكن في لب الأشياء. تريد أن تضمن، أن تحقق، أن تقتني أشياء، ليس في نهم ولكن في حماقة. قلبها فارغ. وهي مشغولة من الصباح إلى المساء. كأن حركتها الخارجية انعكاس لقلق متجدد في داخلها كينبوع ماء. دجاجة قلقة ترى جامع البيض يقف مستعدا خلف السلك. منذ أن تزوجها سعيد وهي هكذا لا يأخذها شيء، ولا تعطي نفسها لشيء. قالت:
- طارق يذكرك كثيــرا هذه الأيام يسأل عنك ويستخرج من الدواليب والأدراج كتبك القديمة. إنه الآن يدخن يا سيدي. صار في الجامعة، ويقول أيضا إنه يكتب الشعر. يتجنب الحديث مع والده.. وأنا لا أكاد أراه.
سعل سعيد في ملل وكأنه يريدها أن تتوقف أو تغير الموضوع، ولكنها استمرت متنقلة من الحديث عن طارق ابنها، إلى تطورات مرض أمهم في الأيام الأخيرة، إلى ضرورة تغيير الغسالة.. وأخيرا: ألم يحن الوقت لكي تحزموا أمركم بشأن البيت والدور الثاني؟
قام سعيد واقفا لكي يوقف تدفقها القلق قائلا:
- مائة مرة.. قلنا هذا موضوع أتكلم فيه أنا، وعبدالخالق فقط.. أرجوكِ. ألم يستيقظ الأستاذ طارق بعد..؟ لم أسمعه عندما جاء أمس.
تهربت من الإجابة، وأوضحت أن عندهم اليوم فتة ولحما مسلوقا على الغداء، وأنه لن يجد مثل هذا اللحم في أي مكان آخر.
بعد أن خرجت تنهد سعيد. وأسند ظهره للحائط. وقال:
- جنون - أصبح البيت لا يطاق، لا شيء ينتهي أبدا، لا شيء يسكن، كأنها تريدني أن أعود، وأسافر مرة أخرى.. ربما كان هذا فعلا هو ما تريد.
اختلفوا في تلك الأيام اختلافا مرعبا كاد يصيبه بالجنون. كان الاختلاف بين الرفاق من أقسى أنواع العذاب. يتكلمون باستمرار. ويضربون رءوسهم في جدران المعتقل الذي وصلوا إليه أخيرا. القلق والتوتر يشكلان وجوههم بأشكال جديدة. غير تلك التي كان يعرفها من قبل.
كيف كان وجهه هو؟ من المؤكد أنه كان قليل الكلام. لم يخترع نظريات، ولم يبتكر تحليلات.

قال أحدهم: القناع لا يخفي الأنياب، قشور الاشتراكية هذه ليست إلا برقعا عربيّا مزخرفا، تتستر وراءه الانتهازية الشمطاء.
وراح يشرح نظريته بجسده ويديه، وكان منظره مفزعا.
وضع أحدهم يده على كتفه وقال:
ـ لا بد أن نضع الملح على الجرح. كل هؤلاء يحاولون تمييع النضال، اعرف نفسك تعرف عدوك، الصدمة جعلت كل ما في الرأس أوهاما. نحن أخلص أصدقاء النظام، ومع ذلك نحن في السجون والمعتقلات. هناك في قمة السلطة قوتان، وفي القاعدة تحالف مستحيل.
واستمر يتحدث في أذنيه حتى أصابه دوار، جلس على الأرض حتى لا يسقط في إغماء.
هناك صاحبه دائما شعور بأنه يعيش في جب، فلم يكن يسأل من أين تشرق الشمس، كان يعد الشهور على أصابعه، وتتجمد على وجهه ابتسامة لا يحب أن يسترجعها.
حاول سعيد أن يستعيد هدوءه وانبساطه مع أخيه فقال:
ـ هل ما زلت تتطلع عبر البحار، إلى كندا.. وأستراليا، وما بين النهرين؟ ألا تريد أن تجد لك زوجة قبل أن تخرج إلى المعاش؟
قام عبد الخالق ضاحكا يبحث عن ابن أخيه في البيت. مع طارق تشرق دائما شموس صغيرة وكثيرة، له وجه نبيل وجبهة رائعة قامت بينهما رغم السن والبعد وندرة اللقاء علاقة روح ودم. يألفه طارق ويستريح إلى صحبته طوال صباه، كان يحب أن يجلس إلى جوار عمه وهو يقرأ.. وكثيرا ما أهداه هو كتبا اختارها له في عناية عندما كان أبوه مسافرا. كان كل منهما يمد يده للآخر عبر سنوات كثيرة وزحام شديد.
وجده يقرأ الأهرام. ويشرب الشاي في سريره. هب واقفا فأخذه بين ذراعيه وضمه جيدا إليه.
كان في جسده الشاب صلابة وتوقد، ضد ذلك الشعور الرخو الذي كان يشعر به. قال لنفسه: «عبد الخالق المسيري. طارق المسيري» ماذا يهم؟ وسأله بينه وبين نفسه: هل تسمع هذا الصوت جيدا؟
جلس إلى مكتبه الصغير، لامس كتبه وكراساته المفتوحة وقال:
ـ أين السجائر: اعترف بكل ما ترتكب من آثام، هات وبسرعة كل ما عندك من أسرار. أمك تشكو منك، وأبوك يمتنع عن التعليق، أما عمك فهو يريد أن يسمع. قل ماذا تفعل يا شيطان؟
تمسك طارق بجريدة الأهرام، يريد أن يسأل بسرعة عن تفسيرات. كان غاضبا محتجا على كل شيء. ولا يرى كيف يمكن أن يستمر الحال هكذا.
امتلأت الغرفة بالتساؤلات. وحاول هو أن يرد على كل شيء دفعة واحدة.

كانت الغرفة الشرقية مسكونة بضوء صباح الجمعة الفارغ البطيء.
يوم قديم عاشه من قبل، كل التفاصيل فيه مفاجئة ومألوفة في نفس الوقت. مرت به من قبل لكنها تعود إليه الآن تحت ضوء جديد مغسولة في بحار الصمت البعيدة.
كأنه يحاول تذكر اسم صاحب وجه يعرفه حق المعرفة، يعرفه كما يعرف نفسه، لكنه لا يستطيع الإمساك بالاسم.
سحبت دورة الزمن روح عبد الخالق المسيري، وهو جالس يراقب ابن أخيه، تأمل فيه مولده وصباه، وسقطت أمامه، سنوات عمره.
هذه الغرفة كانت غرفتي: الخلوة، ومهبط الوحي ووكر الملذات، ليس له فيها الآن سوى صندوق حديدي تحت السرير، وذكريات أيام معلقة في الهواء. ونافذة مفتوحة امتلأت بها عيناه قام أمامها - الآن - جدار الجيران،وابن أخ يحبه ويخشى أحكامه ويخاف من نفسه عليه، قال لنفسه: لك يا طارق أن تسأل، وعليَّ أن أجيب.
كان طارق في السنة الثانية من كلية الآداب سار شوطا بعيدا مع اليسار الجديد، يناقش ويعترض على كل شيء. ويرى أن الكل متقاعس بليد، وأن كل المتكلمين ليسوا سوى مبررين لأخطاء. داعين لقبول أوضاع لا تحتمل. كأن الثورة الشاملة على ناصية الشارع التالي، وكأن التغيير الشامل حلم لا يقبل الانقسام. هو يحتمل حياته هنا مع الأسرة، وفي الكلية وفي كل هذا المجتمع بشكل مؤقت. ذلك الود والصداقة التي تجمعه بعمه عبد الخالق المسيري. مصدر خطر عليه، فهو يريد أن يكون نشيطا فعالا ثوريّا بالمعنى الجديد، حاسما باترا قاطعا في الأحكام ويرى أن عمه وكل من كان يساريّا قديما، لا يصلح لشيء سوى المتاحف.
ماذا يفعلون الآن سوى الدفاع عن تاريخ قديم؟ إنهم يقدمون المبررات ويصنعون شعارات يرددها غيرهم، كل كلماتهم وأفكارهم أصبحت على أفواه من لا يؤمنون بها، من لا يشعرون، أصبحت شعاراتهم عملات يتاجر بها من يريد، الشعارات أصبحت مصدرا من مصادر الدخل. بعضهم جمع من وراء شعاراته أموالا، وبعضهم اكتفى بالندب والاتهام، والبعض الآخر..
شعر عبد الخالق بتلك الابتسامة القديمة التي كان يكسو بها وجهه في المعتقل، تعود لكي تتجمد على شفتيه. إنه يعرفها بتلك الشدة العضلية التي تحيط بفمه فلا يدري ماذا يفعل بها.
أخذ يشير لطارق بيده لكي ينتظر أو يراجع كلامه. ولكنه استمر قائلا:
- أنا لا أقصد أن أكون قليل الأدب. أعرف أنك قادر على أن تفهمني ليس لأنك عمي فقط، ولكن لأنك كنت أمينا ولأنك ترفض الادعاء.
ضحك عبد الخالق في عصبية وقال:
- لذلك تريد أن تجردني من كل شيء. على أي حال. لم تكن أفكاري ملابس أرتديها، لم تكن بدلة نضال، وكذلك أغلب الرفاق، لو أن منظرنا صار غريبا في عيون حضرتك، فقد تمزقت ثيابنا في الطريق، من له عينان للنظر فلينظر.
كان الحديث بينهما مكررا يدور منذ فترات ولا يصل إلى جديد، يرى عبد الخالق الحدة المتزايدة في ابن أخيه، ويرى التراخي والتسامح اللذين يقابل بهما اتهاماته. ويرى الحركتين ظاهرة من ظواهر الطبيعة.

يقول لنفسه في إرهاق وضيق: قبض الريح، تكسرت النصال على النصال. مع طارق راوده الإحساس كثيرا بأن الدائرة قد أغلقت. طـارق يصعد الجبل، وهو يهبطه.. لكنهما يحرثان في أرض واحدة.
كانت حرارة الصحراء في أغسطس ملعونة، وعبث وجودهم هناك ما زال مصيبة مجنونة لم تستقر بعد. وجوه جديدة ما زالت تأتي، أسماء مشهورة، أدباء ومثقفون، طلبة وعمال.
الأفق في النهار ينتهي باللون الأصفر، تلمع الشمس في سراب متكرر ما زال يحمل صور الأهل والأحبة، والشوارع. والمقاهي، والنيل، وفي الليل تلمع نجوم كثيرة، وسجائر مشتعلة تضيء مجهدة للحظات ثم تنطفئ فيطبق ظلام على ملامح شاحبة.
زيارات الضباط، والحراس الجدد، تنهش في الجراح الجديدة كل يوم. الأسئلة تصارع الإجابات، فتصرعها لتهب من جديد، تنين له ألف ذراع. يتجمد الدم في العروق أو يسيل، وتمتلئ الأحلام بالرءوس المتطايرة.
في كل ساعة نبي كذاب، أو شيطان غلبان لا مكر له ولا أنياب.
عليهم أن يجمعوا الحصى الصغير، وأن يتركوا الكبير.
أن يقفوا في الشمس، وأن يتجردوا من الثياب، من يذهب إلى مكاتب الإدارة فليس خيرا ممن يعود منها، تهمة لا أنكرها وشرف لا أدعيه، بدون نظارة النظر لا يمكنني أن أرى شيئا. سقط الصف الأول. هناك حقائق يجب أن يعرفها المسئولون.
كان الطابور طويلا مهزوما، به رجال أقوياء خرجوا بروحهم بعيدا عن المكان، واتصلوا بقوة نابعة من الناس والأرض، وبه نفوس ضعيفة خائرة وأرواح حائرة، لكن الطابور يتقدم في رحلة عابثة إلى الجبل، ويعود من هناك وقد جمع أعشابا وقشّا، وبقايا الآراء والأفكار مكبلة في أرجلهم عاجزة مهدرة يجرونها بين الحياة والموت.
من أجل الوطن، والأجيال.. ومستقبل الاشتراكية.. من أجل فجر لا يطلع، وعدل لن يكون... علينا أن نتمسك بالحلم والوجود.
في الغرفة كانت الأشياء ثقيلة ثابتة، كأنها هنا منذ الأبد تطلع إلى طارق في ملابسه المنزلية وشعره المنكوش.
وسأل عبد الخالق المسيري نفسه:
ـ ماذا عندي لكي أقدمه له؟

سحب عبد الخالق المسيري حقيبة حديدية كبيرة من تحت السرير، تركها هنا منذ سنوات. يكاد يعرف ما فيها دون أن يفتحها، لها رائحة هي بقايا منى المصري، وبقايا الأيام التي أغلق عليها.
تلفت طارق حوله في ارتباك فقال له عبد الخالق:
- دع الموتى يدفنون موتاهم، وعد بعد قليل: اصنع لنا شايا بنفسك.
كأنه لم يختلِ بنفسه منذ سنوات. هبطت عليه شجاعة نادرة وسكينة. أزال التراب الذي يغطي السطح في جرأة، وامتلأت خياشيمه بالرائحة الغريبة.
في الحقيبة كراسات الشعر القديمة، وخطابات من منى، وخطابات إليها، وديوان «أزهار الشر» بالفرنسية كانت تقرأ له فيه، وأفراس بحر قديمة، وقطع من الأحجار، وزجاجة عطر فارغة، وصور، وأيقونة قديمة، وصليب خشبي كبير، وبها ظرف كتب عليه «أوراق رسمية» وجواز سفر لم يستعمل، وعظام صغيرة وجدوها في الصحراء، وقواقع كبيرة يسمع فيها صوت البحر.
قال لنفسه وهو يدس يده في الأركان البعيدة:
- قد أجد نفسي مختبئة هناك، لو وجدتها لقدمتها لطارق.
خرجت أصابعه وقد غطاها التراب.
تناول الكراسات، وسقطت عيناه على كلمات شعر كتبه، صارت الكلمات بلا طعم، كأنها بئر مياه جفت. استمر يمارس طقسه الغريب، وقد خلت نفسه واستحال فراغها ثقلا محيرا، يخاف هذا الإرهاق الذي يحاصره فتبدو الطرق جميعها وقد سدت وصار يواجه نفسه كمن يقف في مواجهة جدار أصم.
كانت منى قد صنعت فستانا جديدا لهذه المناسبة، ليلة رأس السنة. يحتفلون بها عند صديق غني يسكن في شقة كبيرة تطل على النيل مليئة بالضوء والكئوس والموسيقى العالية.
كان حذرا منقبض الصدر. جديد عليه أن يراهم هكذا، كانت تمسك بيده في أول السهرة حتى لا يهرب. أو يسقط في حالة من حالات السكر الشديدة التي تفصل بينه وبين العالم، فيغرق في الصمت، أو يصيح بلا معنى كطفل مشاكس.
جديد عليه أن يراهم هكذا.. كل الرفاق والأصدقاء.
ينكمش في ركن لا يتحرك، معه كأس مخثرة بلا مذاق. تتركه قليلا ثم تعود إليه.
جديد عليه أن يراهم هكذا.. استداروا.. كل منهم دائرة صغيرة في قلبها كذبة، أو مؤامرة صغيرة حولها رداء لامع. يأتي إليه واحد منهم فرحا منتصرا بلا معنى، كأن عيونهم من زجاج.
يتحدثون عن كل شيء. عن السيارات، والمرور، عن الغلاء والشقق في الإسكندرية، والاشتراكية، عن الاتحاد السوفيتي، وأسعار الطائرات.
أحاديثهم، والموسيقى الصاخبة، والدوائر التي يتحركون فيها تطرده بعيدا إلى شرفة مفتوحة خالية. قطع من النيل يراها من خلال أشجار كثيفة.
تسللت خلفه، واستندا صامتين إلى سور الشرفة، تصلهما ضوضاء مدغمة ويفصلهما ظلام.
أمسك بوجهها بين يديه، وحدق في عينيها وقال:
- نحن بلا مستقبل.. لأننا لا نعرف الكذب. هذا هو الباقي إذن، تنحل أشياء الحقيبة أمامه إلى أيام ثقيلة بعيدة، لا يدري إن كان هو الذي عاشها، أم إنها تخص شخصا آخر.

عندما فتح طارق الباب فجأة، أغلق الحقيبة ودفعها بقدمه تحت السرير، ونفض يديه بسرعة من التراب.

شيء في وجهه منع طارق من مواصلة الحديث. وضع الشاي أمامه على المكتب وعاد يقلب في جريدة الصباح.

وعندما طال بينهما الصمت، قال طارق:

ـ يظهر أن جدتي تريد أن تراك، أما أمي فهى تسأل إن كنت ستبقى معنا للغداء.

قال عبد الخالق وهو يسحب نفسه من بعيد:

ـ لا.. بل سنخرج، تعالَ معي حتى الميدان.

انتزع نفسه من البيت بصعوبة، هاربا إلى لا مكان، وعند الباب الخارجي وجد طارقا ينتظره لكي يسير معه حتى ميدان الدقي.

جاء غريبا، وغريبا يعود.

بحث عن شجرة الليمون فلم يرَ سوى أطراف منها بعيدة، تظهر خلف البيت بين العمارات.

هل يريد طارق أن يسمع حديثه عن شجرة الليمون، عن زهرها الأبيض المتساقط على الأرض؟

هل يستطيع أن يتحدث معه في ضوضاء الشارع المتزايدة عن سر تلك العلاقة بينه وبين الزهرة البيضاء؟

سيحسب هذا رومانتيكية عرجاء.

هو يرى أن يتحدث عن الانتخابات، وعن أحداث الصعيد، وعن حركة الطلبة في أسيوط.. هذا حقه، وهذا مصيره.

أما عبد الخالق المسيري فقد كان يرد عليه وعقله غارق مع زهرة الليمون. أريجها الذي لم يشمه اليوم، أريج الماضي، والأرض، والوطن، رائحة رضا، وأم رضا، والعشة الرطبة، والأرض الخضراء، ألن يستطيع أن يدفع عن رأسه أبدا هذه الخيالات؟!

كانت الدكاكين تملأ الشارع، وتحيط بالبيت من كل جانب. البيت ما زال بأعمدته الخرسانية العارية التي تعلوه، والطوب الأحمر الذي لم يكتمل، ما زال قائما في الوسط في تحدٍّ أحمق يبعث على الضحك.. أو البكاء.

أعطى للبيت ظهره، واندلعت الميكروفونات في الحي كله تعلن الاستعداد لصلاة الجمعة، وبدأت جموع المصلين تعبرهم في جلاليب بيضاء نظيفة. وهو وطارق يخترقان الشوارع الجانبية في طريق مختلف إلى الميدان.

أمسك بيد طارق الحارة، وتمنى بينه وبين نفسه لو أنه امتلك كلمات بصيرة، كاشفة يقولها في اتساق، فيعيد للقلب القلق بعض الهدوء.

كانت الزيارة قد فتتت كثيرا من التماسك الخارجي الذي يدعيه. يريد أن يتمسك بصياغة الكلمات لكي يجمع واقعه المشرف على التفتت والانهيار. من أجل هذه اللحظات خلق الشعر.. ولكنه يبدو الآن بعيدا مستحيلا وليس أمامه سوى أن يسمع دقات طارق على باب مغلق.

كان صغيرا يخرج قبل الغروب في نزهة مسائية مع أبيه. أيامها كان أبوه مشغولا بإكمال بناء البيت، بعد أن ينصرف العمال الذين يعملون في البياض، يغتسل جيدا في الحمام الذي لم يكتمل بعد، ويرتدي جلبابا أبيض نظيفا، ويصحبه في جولة بعيدة إلى حقول ممتدة حولهم؛ حتى يصلوا إلى ساقية قديمة قرب السكة الحديد.

تبدأ الرحلة وتنتهي عند شجرة الليمون.

كانت هي العلامة والراية، بيتهم كان هو البيت المجاور لشجرة الليمون، كانت هي العنوان.

أريجها صافٍ، يسافر فوق خضرة الحقول.

قال له أبوه:

- بعد أن ينتهي عمال البياض، سنشرع في زراعة الحديقة. هل تحب أن تعمل معي في إصلاح الأرض والزرع؟

كان غارقا في حلم نبيل، لوحت الشمس وجهه. وحطت على جبينه سعادة.

سـأله:
ـ هل ستزرع لنا شجرة ليمون؟
داعب رأسه قائلا:
ـ كل الأشجار، تكفينا ليمونة أم رضا..
أمضيا النزهة يتحدثان عن أنواع الأشجار، والزهور، وعن المقاعد الخشبية التي سيقيمونها في الحديقة. اشترى أبوه كرنبة كبيرة من فلاح في حقل، وقبل أن تغرب الشمس الحمراء في الأفق استدارا عائدين يخترقان الحقول، وجهتهما البيت وشجرة الليمون.
عندما اقتربا من عشة أم رضا.. قامت المرأة من أمام النار التي أوقدتها. وحملت لهما حبات ليمون خضراء نضرة زكية الرائحة. كانت الأرض أمامها مفروشة بزهر الليمون المتساقط، أبيض، أصفر القلب، مهدرا، وهى تدوس عليها بأقدامها الحافية الكبيرة. أما على الأغصان فكانت الأزهار قوية بيضاء نضرة كأنها تاج فوق الخضرة.
مال يجمع بعض الأزهار المتساقطة، وتمنى بينه وبين نفسه ألا يزرع أبوه شجرة ليمون في الحديقة.
كانت سورة «الكهف» تنساب من ميكروفونات الجوامع، باعثة في المكان جوّا متصاعدا مفارقا للواقع، تترسب الكلمات في صدره فتجمع شتات نفسه في نغم باحث عن قرار.
وعلى النواصي فرشت الحصر، واجتمع المصلون في صفوف ساكنة، وقد أعطوه ظهورهم، وهو يشق طريقه مع طارق إلى الميدان.
كان الميدان شبه خالٍ، والأتوبيسات تتلكأ عند المحطات.
قال طارق:
ـ اليوم ستكون القاهرة مدينة مهجورة.. في الثالثة مباراة الأهلي والزمالك. استقل الأتوبيس الذاهب إلى ميدان التحرير، قبل أن يصرخ خطيب الجمعة كأنه يريد أن يوقظ الأموات..

امتلأت أنف عبد الخالق المسيري برائحة التراب المبلول في داخل الأتوبيس الخالي الذي يخترق حي الدقي والكباري، قاصدا بسرعة إلى ميدان التحرير.
ربط السائق رأسه بمنديل مبلول، بعد أن غسل الأتوبيس من الداخل وأغرقه بالماء، وأدار راديو صغيرا على محطة تذيع أغنية دينية لأم كلثوم.
راح الكمساري يغلق حساباته (في المنافستو)، ويدخن بنهم سيجارة غليظة في يده، يحصي نقوده القليلة، وهم يقتربون من محطة الوصول. فلن يركب بعد الآن ـ أحد.
«هدمت ما بنيت، أضعت ما اقتنيت».. الشعر مهاجر يسافر في الاتجاه المعاكس.
كل الرحلة انتهت، أو كادت، وتصاعدت رائحة الانتهاء.
في دقائق وصل الأتوبيس إلى ميدان التحرير، بسرعة فاجأت عبد الخالق المسيري.
إذا كان القلب خاويا هكذا، فكيف تكون الأطراف؟ كان الميدان بلا شكل كأن يدا باطشة غليظة قد عبثت به، وراح عبد الخالق يبحث عن ممر يفضي إلى رصيف أو مقهى. امتلأ الميدان بالسدود والجدران الخشبية وقد اعتلاه غبار ناعم يجعل الضوء ثقيلا كأنه ضوء الساعات الخانقة التي تسبق الغروب.
حلت به وحدة ثقيلة، وغربة لا يعرف كيف يدفعها عن نفسه. ليست هذه هي الأماكن التي كان يقصدها، وليس هو الكائن الذي يعرفه، من كان يتصور أنه سيسير في ميدان التحرير عجوزا هكذا، تائها، لا يعرف مقصده. وقدماه لا تحملانه إلى مكان.
جلس إلى أول مقهى يعرفه، كان واسعا فصار مثل الخندق، كان مفروشا بالضوء والشمس نظيفا، فصار معتما مصطنعا يضاء بلمبات صغيرة في النهار.
كان المقهى خاليا إلا من فتاتين تغطي وجهيهما أصباغ رخيصة، ومعهما شابان من العرب يختفيان في ركن من الأركان.
الجرسون قد شاخ هو الآخر، واتسخت ملابسه البيضاء، صارت يده تهتز وهو يصب له القهوة، تعرف عليه وتذكر وجهه، ولكن الاثنين كانا أكسل من أن يفتحا حديثا.
انتهت صلاة الجمعة، وامتلأت الشوارع بالناس للحظات، ثم خلت المدينة وكأنها تنتظر انفجارا، وبقي الجرسون العجوز مستندا إلى باب المقهى ينظر إلى لا شيء.
كان هذا منذ عصور سحيقة. في نفس هذا المقهى، وكان اليوم أيضا يوم جمعة، ينتظر منى المصري لكي يستلما الشقة. ويبدأ فيها حياة زوجية بعد أن مضى عليهما شهور بين بيوت الأصدقاء، والبنسيونات، والشوارع والحدائق.. وكل العالم.. أحضرت معها حبات من اليوسفي وسندوتشات وشنطة كبيرة.
جلست إلى المنضدة أمامه، وامتلأت الحياة حولهما بالأشياء الممكنة والبسيطة، أشياء لا تحتاج إلى سؤال تقدم نفسها. تشاركه دون ازدحام كان يريد أن يقبلها، أن يحتويها وقد أسلمت وجودها له.
حديقة الميدان، خضراء لامعة مليئة بالزهور، كان يريد أن يسجل تاريخ اليوم في تمثال ٢٣ أكتوبر. شربا شايا ساخنا مع السندوتشات وأكلا اليوسفي، وجمع القشر في كيس، أمسك يدها وقد استسلما للحظة كاملة في شمس خريف مصري جميل.
لم يكن أحد منهما متعجلا للقيام، فشربا قهوة، وسألهما الجرسون عن سر البهجة التي تسودهما هذا الصباح، ولماذا لا يشركونه فيها؟

مرت به لحظات حسب أن لها صفة الدوام، ورأى أن منى خلقت له، وجاءت هنا من أجله فقط، في عيونها فرح عذب ينهل منه، وفي بشرتها ووجهها يضج الابتسام.
سأل عبد الخالق المسيري نفسه: ثم بعد؟ إلى أين من هنا؟ وكيف أحمل كل هذا الإرهاق والعناء؟
تعلقت أشلاء الميدان، وبعض من أشلاء نفسه على زجاج المقهى، وأحس أن كل العالم يقف على كتفيه.

تحركت اللحظات والساعات كما تتحرك، وخرج منها إلى وهم الاستمرار الذي يبقيه متفرجا، فقد حماسه.
عليه أن يبقى في الطريق حتى تحين ساعة الركوب إلى السويس. اكتملت عطلة نهاية الأسبوع بلا بهجة أو فرح. مباراة الكرة قد أخلت المدينة، وتجمع الناس في المقاهي التي أغلقت نصف أبوابها. وامتلأت بالكراسي المرصوصة لمشاهدة التلفزيون.
يعطيه الجميع ظهورهم، ولا يتعرف عليه أحد.. لماذا جاء إذن، ولماذا يعود؟
لا أحد يحتاج إليه، ليس له ضرورة. لا هنا. ولا هناك، تساقط وتساقطت أيامه، كما يتساقط زهر الليمون، بلا نبل ولا أريج.
تتخبط أقدامه فوق أرصفة شوارع وسط المدينة الخالية بلا هدف أو رغبات، العمارات، والشقق تتجمع ضاغطة عليه، وحياته حبات عقد منفرط في يديه، ذقنه نابت وقد اتسخ قميصه، ولم يبقَ في جيبه من الجنيهات العشرة سوى أوراق قليلة.
لم يكن هناك سوى أحمد صالح، في ورشته الصغيرة في الأزهر سيكون هناك مشغولا، وخالي البال، يراقب الصبيان يعملون في الدكان، والنساء يعبرن الطريق أمامه، يعد لسهرة أو يقلب في سيرة الناس في حكايات لا تفرغ.
لم يره في هذه الزيارة سوى لحظات في جلسة البار السخيفة، وتركه حتى دون وداع.
بعث تذكر صديقه بعض الحماس في خطواته. فأخذ يبحث عن أتوبيس يقله إلى الأزهر.
هو لا يريد أن يدخل إلى بيت مرة أخرى الآن. لا يريد أن يسمع شقشقة نساء، أو أزيز خلاط، وهو بالتأكيد لا يريد أن يسلم عينيه لوميض تلفزيون.
وجد الطرقات التي تؤدي إلى ورشة أحمد صالح أكثر رحمة وإنسانية، كانت رطبة ظليلة، منداة برائحة العطارة والحياة، ومشغولة بالعابرين، والعاملون لا يكفون عن إلقاء التحية أو الصياح بالنكت أو السباب.
من آخر الشارع، رأى أحمد صالح يجلس على باب الدكان، حوله، وفي يديه، بعض الأواني الفضية يفحصها ويلفها في أوراق ناعمة.
أكد له أحمد صالح أنه كان يفكر فيه. كان يسأل نفسه: أين أمضى الليلة وكل النهار؟ فكر في أن يسأل الليلة فتحي نور الدين، ولكنه ابن حلال جاء في الوقت المناسب لكي يتناولا معا طعام الغذاء.
كانت الورشة صغيرة مزدحمة بالمشغولات، والأواني المليئة بالماء وبنشارة الخشب، وصوت وابور الجاز الكبير يختلط بضوضاء الشارع.
وقد عكف ثلاثة من الصبيان على الأواني البلاستيك يخرجون منها أزرارا ونجوما فضية، أما أحمد صالح فقد جلس عند باب الدكان إلى منضدة قديمة يراجع العمل، ويلف الشغل في أوراق وقد استغرق في أفكار بعيدة.
لم تكن هذه عادته، منذ شهور لم يتكلما معا، ولم يسهرا سهراتهما الحميمة لا في السويس ولا هنا، كانت عيون أحمد مأخوذة وقد سكن على وجهه خوف غامض.
من مجلسه إلى جوار أحمد صالح، كان يراقب السماء ونهاية الشارع وقد بدت بعض المباني القديمة المهدمة في ضوء العصر المبكر، داكنة سوداء كأنها ظهور قافلة.

أخرج له أحمد من درج المنضدة سيجارة حشيش ملفوفة، ولم يشعل لنفسه واحدة. حسب أنه يريد أن يتقاسماها معا، ولكن أحمد قال:
ـ خلاص.. عليه العوض.
وحكى له حكاية الأزمة القلبية التي فاجأته منذ أسابيع، وكيف أنه مات وصحا مرة أخرى، وأن الدكتور أنذره أخيرا بالتوقف عن التدخين، والطعام والشراب، وأشياء أخرى كثيرة..
وبعد أيام تسربت القرارات الطبية والأوامر، وعاد إلى الشارع، ولكنه صار حقًّا ـ يخاف من السيجارة.
كان في وجهه شيء داكن، وأحس أن هناك قلقا حقيقيّا لا يقدر على إخفائه، انتقل إليه بسرعة فزع جديد، ولكنه تماسك قائلا:
ـ ليس هناك شيء جديد، هذا ضروري، بعض الراحة، وترجع زي الحصان.
ولكن شيئا كان يقف على أكتاف أحمد صالح، ويحوم حول وجهه، يؤكد أنه لا يصدق صديقه. انشغل في لف قطع الفضة، وأرسل أحد الصبية لكي يستعجل لهما صينية الغداء.
بدأت النهاية من أطراف الأصابع، لم يكن أبوه يعرف المرض، ولم يكن يستسلم إليه. لا يذكر أنه شاهده راقدا في سريره. يدعك جبهته بالليمون إذا أصابه صداع، ويشرب شايا بالليمون إذا أصابه مغص، ويسخر من النساء المتمارضات ويقدم لهن عصير الليمون.
بدأت النهاية من أطراف الأصابع. كان يصيح: نار يا أولاد.. نار في أصابعى، كان يغسلها بالماء، ويرفعهـا إلى السـماء مستجلبا عليها الهواء. ثم أخذ يحضر من الأجزخانة أدوية مختلفة الألوان يغمسها فيها.
أخذت نوبات الالتهاب الشديد الذي يصيب أصابعه تتقارب وتتكرر، وبدأت حبوب حمراء تملأ أصابعه.
قال له الأطباء الذين أخذ يتردد عليهم: «أوكزيما»، حساسية من نوع خاص، صار لا يتحدث إلا عن هذا الموضوع، يكرر أمام الزوار أنها ليست معدية، وأن الدهانات والمراهم لن تجدي، فهي مرض داخلي، يسكن الجسم كله، وهو متأكد أنه لا علاج له.
ومع ذلك، أخذ يبحث في الأعشاب، وفي الوصفات البلدية. رجل في أقصى المدينة في حلوان، يقدم لمرضاه مرهما خاصّا من تركيبة.
سافر إليه، وجاء بزجاجة غريبة، وعلبة صغيرة، يخلط ماء الزجاجة بمسحوق العلبة وتتصاعد رائحة كريهة، ثم يسقي بالسائل أصابعه، التي صارت حمراء ملتهبة، وانعقد على جبهته قلق وألم. كان يخفي يديه، ثم يعود فيحركهما، ويستغرق في مراقبة حالتهما. استحوذت أصابعه الملتهبة على حياته.
جاءت صينية الطعام، مستديرة وشهية ومليئة بالأطباق الصغيرة، وقد غطاها رغيفان كبيران، أخلى أحمد المنضدة أمامه ودعاه للطعام. أخذا يتناولان طعامهما دون شهية كبيرة، على غير العادة. فقد كان أحمد يحسن دائما استقبال الطعام.
كان قد بقي في الصينية طعام كثير، عندما ملأ بطنه بماء القلة البارد وأشعل سيجارة، فأشعل أحمد صالح هو الآخر سيجارة.. وراحا يراقبان الطريق.
حل عليهما مع كوب الشاي، صمت ثقيل، وكأن كلّا منهما يسمع دقات قلبه، وأحس بأن أحمد يقاوم لكي يدفع عن نفسه الخيالات الثقيلة، وأنه يستجلب بصعوبة نكتة هنا أو حكاية من هناك.
وعده بأن يأتي قريبا إلى السويس لكي يرتاح عنده أياما..

ـ تعرف تشتغل ممرض، وتعمل شوربة خضار؟ بس يا أخي السلم عندكم عالي، لازم تدور على فيلا.. أو شقة على البحر..
وضحكا.
قام عبد الخالق متثاقلا، لا يريد أن يفارق صديقه، الذي أصر على أن يسير معه حتى آخر الشارع. وأن يعطيه بعض النقود سلفة حتى أول الشهر.. وافترقا.

من خلال طرق متعرجة كثيرة، وجد عبد الخالق المسيري نفسه مرة أخرى في مواجهة بحار البشر والضوضاء في موقف التاكسيات.
كان الغروب قد أقبل مسرعا، والناس من حوله يستعجلون كل شيء. واحتفظ هو في داخله بشعور بطيء وثقيل كأنه يسير في مياه سميكة.
غريبا جاء، وغريبا يعود.
تدلت يداه إلى جواره، وانحط في مقعد إلى جوار سائق يعرفه، في تاكسى «بيجو». ما لبث أن امتلأ، وانطلق يشق غابة من الأضواء والخيالات والعربات المسرعة في الاتجاه المقابل.
هبط عليهم الليل في الطريق، وتدلت رءوس الركاب على صدورهم، أدار السائق شريط قرآن كريم بصوت مقرئ قديم.
كان نور العربة يدفع أمامه كتلا من ظلام، وأسلم عينيه لاتساع الصحراء حوله، وسأل نفسه: كيف يحسب الناس الأيام؟ ما الذي يجمعها، وكيف تنفرط؟ هل هي مثل المسافات؟
عند مدخل السويس اختصر السائق الطريق، وسار في طريق ترابى قصير، تحده أشجار التين الشوكى العجوز، وأشجار أخرى تكشف الأنوار عن سيقانها الغليظة وأفرعها المتهدلة، وتتبع العربة أشباح ضخمة تسبح في الغبار.
في السويس أسرع مبتعدا عن الميدان المضيء. وسار في الشوارع الجانبية للمدينة التي نامت مبكرا.
تسلق درج السلم المظلم، وجد أن أم يسرى جارته قد تركت لمبة كهربائية صغيرة مضاءة فوق غرفتها على السطح، وصوت التلفزيون الجديد لم يسكت بعد.
المدينة كما تركها، ساكنة، أضواؤها خافتة كأنها مركب ضخم يبتعد. أما الزرع الجاف الذي يشغل زاوية السطح البعيدة فقد بدا له وكأنه شخوص صغيرة جالسة القرفصاء.
أطل من السطح على البحر البعيد، وعلى جبل عتاقة. حارس صامت يزداد في الليل جهامة.
أخرج مفتاح الغرفة من جيبه الصغير، أضاء النور، وتعرف على نفسه من جديد في الأثاث العارى والسرير الصغير.
وضع إبريق الشاي على النار، وفي انتظار أن يغلي الماء، استلقى على السرير، وقد وضع يديه تحت رأسه، وعيناه مفتوحتان تحدقان في السقف.

عـــلاء الديب
1987